الفصل الثالث

الصنعة والتصنيع

لله ما راح فى جوانحه ... من لؤلؤ لا ينام عن طلبه
يخرجن من فيه فى الندىّ كما ... يخرج ضوء السراج من لهبه

(بشار)

١

الشعر فى القرنين الثانى والثالث وعلاقاته الجديدة

لا نكاد نمضى فى القرن الثانى للهجرة حتى يقوم على صناعة الشعر أمشاجٌ من العرب والموالى الذين كانوا يعيشون فى المراكز العقلية الكبرى وخاصة البصرة والكوفة ، فكان طبيعيًّا أن تتطور صورته وأن تختلف عن صورة الشعر القديم الذى كان يستمد من علاقات البادية وصلاتها الحسية والمعنوية ، لسبب بسيط ، وهو أن مَنْ ينظمونه يَحْيَوْنَ فى المدن ، وتؤثِّر فيهم علاقات وصلات جديدة ، بعضها سياسى ، وبعضها حضرى واجتماعى ، وبعضها عقلى وثقافى ، ونحن نسوق طائفة من هذه العلاقات والصلات الجديدة .

الدعوة العباسية

أخذت هذه الدعوة فى الظهور منذ أوصى أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بالإمامة من بعده إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . فتحولت إليه الفرقة المعروفة فى تاريخ الشيعة باسم الكيسانية التى كانت تدين بإمامة ابن الحنفية ، كما تحولت إليه فرقة أبى هاشم نفسه المسماة بالهاشمية ، وأخذ على رأس المائة يدير من موطنه فى الحُمَيْمَة دعوة سرية للقضاء على بنى أمية ، وأرسلى دعاته

فى الآفاق ، وخاصة فى الكوفة وخراسان ، وما زال يوالى الدعوة ، حتى توفّى ، فخلفه وصيُّه وابنه إبراهيم ، ولما طلبه الأمويون وأيقن بالهلاك أوصى لأخيه أبى العباس السفاح . وبعد مغامرات ومخاطرات جَمّة استطاعت الجيوش الخراسانية بقيادة قحطبة وابنه الحسن القضاءَ على الدولة الأموية ، واتخذ السفاح الهاشمية بالقرب من الكوفة حاضرة له ، ولم تطل مدته فخلفه أبو جعفر المنصور ، ويُعَدُّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، وقد ثار عليه عمه عبد الله ، فقضى على ثورته أبو مسلم الخراسانى ، ولم يلبث هو أن قضى على أبى مسلم إذ استدرجه إلى «المدائن» وقتله . وفى هذه الأثناء كان العلويون يرون العباسيين اغتصبوا دولتهم ، إذ كانوا يظنون أن الخراسانيين يعملون من أجلهم وأن العباسيين صرفوهم عنهم بخبثهم ومكرهم ، فثاروا أولا فى الحجاز بقيادة محمد بن عبد الله بن الحسن ثم ثاروا فى البصرة بقيادة أخيه إبراهيم ، واستطاع المنصور أن يقضى على الثورتين ، جميعاً . ولما تم له الظفر بأعدائه فكر فى أن يبتعد عن الكوفة مستقر الشيعة والعلويين ، فاختار قرية صغيرة على الضفة اليسرى من دجلة تسمى «بغداد» ، لتكون حاضرة دولته وأقام فيها قصوراً لنفسه وحاشيته ، كما أقام فيها دواوين دولته ، واجتذب إليها التجار والعلماء . وبنى لجيشه معسكراً على الضفة اليمنى ، وأطلق عليها اسم دار السلام ، ولكن اسمها القديم هو الذى ذاع وشاع .

وعلى هذا النحو استقر العباسيون فى بغداد ، ولم تقم للشيعة قائمة بعد المنصور . وكذلك الشأن فى الخوارجَ فإن حروب الأمويين طحنتهم ، ولم نعد نسمع بثوراتهم فى العراق إلا مشاغبات ضئيلة ، سرعان ما تخمد . وانتقلوا بنشاطهم إلى بلاد المغرب حيث لا تزال لهم بقايا هناك إلى اليوم . وقد يكون السبب فى ذلك أن العرب خوارجَ وغير خوارج فى هذا العصر دَحرتهم الجيوش الخراسانية فعادت فلولهم إلى الصحراء ، ولم تعد الدولة العباسية تشهد فى العراق معارضة سياسية على نحو ما كان الأمر فى عصر بنى أمية . وليس معنى ذلك أن الشيعة عدموا من يتشيع لهم من الشعراء . فقد كان هناك من يتشيعون لهم ، غير أن كثيرين من شيعتهم لم يجدوا بأساً فى أن ينضووا تحت لواء العباسيين ، فقد رجع الحق بهم إلى أهله

وورثته الشرعيين، وخير من يمثل ذلك السيد الحِمْيَرى، فقد كان من غلاة الشيعة، وكان يجهر بتأييد العباسيين، ومدح السفاح حين دخل الكوفة فقال[١] :

دونكموها يا بنى هاشمٍ   فجدّدوا من عهدها الدّارسا
دونكموها فالبسوا تاجها   لا تَعْدَمُوا منكم له لابِسَا

وظلّ يَحْطِب فى حبل الخلفاء العباسيين ، وظلوا يقربونه ويُجْزلون له فى العطاء وهو لا ينسى عليًّا وفضائله مؤمناً برجعة إمامه محمد بن الحنفية ، ومن مستحسن شعره فى آل الرسول صلوات الله عليه[٢] :

أتى حَسَنًا والحسينَ الرسولُ   وقد برزا ضَحْوَةً يلعبانِ
وضمّهما ثم فدّاهما   وكانا لديه بذاك المكان
وطأطأ تحتهما عاتِقَيْه   فنعم المطيّةُ والراكبان

ونلتقى فى القرن الثانى بكثير من هؤلاء المتشيعين الذين يسرفون فى مديح العباسيين مثل منصور النَّمرى ، وكان يكثر من رثاء العلويين وبكائهم ، ومن جيّد ما قاله فيهم[٣] :

آلُ الرسول ومن يحبُّهمُ   يتطامنون مخافة القَتْلِ
أمِنَ النصارى واليهود وهم   من أُمّة التوحيد فى أزْلِ[٤]

ولعل أهم شاعر أعلن عقيدته الشيعية وعاش يناضل فى سبيلها هو دِعْبِل الخُزَاعى ، وكان يأتسى بالنمرى فى بكاء آل البيت ورثائهم، وامتاز بأنه كان يضيف إلى ذلك هجاء لاذعاً فى العباسيين، وكأنه نظر إلى بيتى النمرى السابقين حين قال[٥] :

أرى أمية معذورين إن قَتَلوا   ولا أرى لبنى العبّاس من عُذُرِ
قَتْلٌ وأسْرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ   فعلَ الغزاة بأرض الروم والخَزَرِ

(١) الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/ ٢٤٠.
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٤٧ .
(٤) أزل : شدة وضيق .
(٥) أغانى (ساسى) ١٨/ ٤٤ .

وهو صاحب القصيدة التائية المشهورة [١] :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ... ومنزِلُ وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصاتِ

ويقول ابن المعتز: إنها أشهر من الشمس

وكان هؤلاء الشعراء المتشيعون يعدون شذوذاً فى تلك الحقب التى استقر فيها الأمر لبنى العباس . ولعلهم من أجل ذلك كانوا يداجونهم ويمدحونهم حتى دعبل فإنه كان يكثر من مديح المأمون . وكان الشعراء عامة من حوله ومن قبله وبعده يُضْفون عليهم مدائحهم ، ووقف كثيرون منهم يدافعون عن حقهم فى الخلافة أمام العلويين ، وأنهم ورثتها الشرعيون بحكم ما نزل به الوحى الكريم فى مثل قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وما جاء فى فريضة الميراث من تقديم العم على أبناء البنات ، ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه مروان بن أبى حَفْصة فى مثل قوله للمهدى :

يا بنَ الذى وَرِث النبىَّ محمداً ... دون الأقارب من ذوى الأرْحامِ

الوَحْىُ بين بَنى البنات وبينكم ... قَطع الخصامَ فلاتَ حينَ خِصام

فارضَــوا بما قسم الإله لكم بهِ ... ودعوا وراثة كلَّ أصْيَد حام [٢]

أنَّى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لبنى البنات وراثةُ الأعمامِ

فالعباسيون لا العلويون هم أصحاب الحق فى ولاية المسلمين ، وهو حق إلهى نص عليه القرآن الكريم . وكم من شاعر صور هذا الحق مُضْفيا على العباسيين سيرة تقية عادلة ، فهم ظل الله فى أرضه يحكمون الناس بتفويضه وإرادته .

الشعوبية

خسر العرب بسقوط الدولة الأموية سيادتهم المطلقة التى كانت لهم فى هذه الدولة ، إذ كان السلطان عربياً خالصاً . ولم يعد لهم ولا لجزيرتهم أى شأن مهم فى السياسة ، فقد غلب الفرس على الدولة وأصبحوا هم السادة وأصحاب النفوذ فى

---

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/١٠٣ .

(٢) الأصيد : السيد . والحامى : من يحمى ذويه .

obeikandl.com

البلاط العباسى . ومن المحقق أن الثورة العباسية لم تكن ثورة على العروبة من حيث هى عروبة ، وإنما كانت ثورة على الأسرة العربية الحاكمة التى لم تكن تعترف بمبدأ المساواة بين جميع المسلمين عرباً وغير عرب فى الحقوق ، خارجةً بذلك على نظرية الإسلام التى تنصُّ على هدم العصبية القبلية والجنسية فى مثل قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسوله الكريم فى خطبة حجّة الوداع : « لا فضل لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى » وقوله : « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يَدٌ على من سواهم » . وكان علىٌّ وسابقوه من الخلفاء الراشدين يأخذون بهذه النظرية المثالية ، فلما انتهت مقاليد الحكم إلى بنى أمية أخذ كثير من العرب يشعرون بالتفوق على الأعاجم الذين غلبوهم . وتملكهم الإحساس بالسيادة ، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود . وتبلور هذا الإحساس فى الدولة وحكامها فلم يسووا بين الموالى المسلمين والعرب فى الخراج وأرهقوهم بالضرائب ، سوى ما كان من عمر بن عبد العزيز . إلا أن قِصَرَ عهده لم يتح الفرصة كاملة ليقف الموالى مع العرب على قدم المساواة . وسرعان ما أُسْدِلت على سياسته الرشيدة ستور النسيان .

وأخذت هذه المشكلة مشكلة المساواة بين الموالى المسلمين والعرب تتبلور فى سرعة . ومن غير شك كانت أهم سبب فى اعتناقهم للتشيع ، فإن علياً حين اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته كان يسوّى بينهم وبين العرب فى الحقوق . فلما قُتل وأخذ الأمويون يقسون عليهم فى المعاملة كانوا يذكرون أيامه ويبكون عهده ويتمنون أن لو رُدَّ الحكم إلى أحد أبنائه . لعله يعيد الأمر إلى نصابه . حتى إذا نظّم العباسيون الدعوة لهم فى خراسان انضموا إليها أفراداً وجماعات . وكوّنوا هذا الجيش الضخم الذى قضى قضاء مبرماً على الدولة الأموية وجيوشها العربية .

ومعنى ذلك أن الثورة العباسية الأعجمية لم تكن ثورة على العروبة من حيث هى . وإنما كانت ثورة من أجل تطبيق نظرية الإسلام فى المساواة بين العرب والموالى . غير أن الظروف أدّتْ إلى أن يكون الفرس فى جانب والعرب فى جانب

وأن تعلو كفة الفرس وأن يشعروا شعوراً قويًّا بقوميتهم ، إذ أصبح النفوذ فى أغلبه لهم ، واستطاعت أسرة من أسرهم ، وهى أسرة البرامكة أن تحتفظ بالوزارة أعواما طويلة من القرن الثانى ، وكان لها أثر عظيم فى حياة الجماعة ، إذ عملت على إشاعة التقاليد الفارسية فى الحكم ، وشجعت على نقل آداب قومهم إلى العربية . وخلفهم بنو سهل فى عهد المأمون ، وهم فرس أيضاً . ويمضى العصر العباسى إلى خلافة المعتصم فارسيًّا حتى يُخْرج هذا الخليفة أمر الجيش من أيدى الفرس ، فيجلب له جنوداً من الترك ويبنى لهم سامرًّا (سُرَّ مَنْ رأى) . على أن العنصر العربى ظل ممثلا بقوة فى الخلفاء العباسيين وفى الدين الإسلامى واللغة العربية وفى بعض الأفراد من الوزراء والولاة والقواد أمثال يزيد بن حاتم المهلبى ومعن بن زائدة ويزيد بن مزيد وحُمَيْد الطوسى وأبى دُلَف العِجْلى . ولكن مما لا شك فيه أن الأعاجم كانوا متفوقين طوال العصر العباسى الأول ، فوقفوا من العرب نفس الموقف الذى كانوا يقفونه منهم فى عصر بنى أمية .

وهنا نجد مشكلة المساواة بين الموالى والعرب تثار فى نطاق واسع تحت اسم الشعوبية ، وكان واضحاً أن الموالى يسبقون العرب فى العلم ، إذ كان منهم أكثر العلماء لا فى العصر العباسى وحده ، بل منذ العصر الأموى ، وطبعاً كانوا يسبقونهم فى الزراعة والحرف المختلفة ، وهم اليوم يسبقونهم فى السياسة ، وأخذت الدولة تفيد فائدة واسعة من النظم الساسانية القديمة كما أخذت تنظِّم ترجمة الثقافات الأجنبية . وأصبحت كثرة الأدباء كتاباً وشعراء من الموالى وخاصة الفرس ، إذ كان ابن المقفع أكبر كتَّاب عصره فارسيًّا ، وكذلك كان بشار بن بُرْد زعيم المجددين فى الشعر . كل ذلك هيَّأ لفتح هذا الباب الكبير : باب الشعوبية ، وواضح من اسمها أنها تبحث فى فضائل الشعوب وأيها يتقدم غيره من الأمم ، وقد تحولوا بها من المساواة التى كانوا يريدونها بينهم وبين العرب إلى إثبات أنهم فوقهم وأفضل منهم . وانبرى لذلك جماعة من علمائهم جعلوا همهم الحَطَّ من شأن العرب فى جاهليتهم بما كانوا فيه من البداوة والفظاظة ولبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة ، ووضعوا كثيراً من الكتب فى

مثالبهم، يذكرون فيها مثالب القبائل قبيلة قبيلة، واشتهر بالكتابة فى هذه المثالب أبو عبيدة وعلاّن الشعوبى والهيثم بن عدىّ، وتعرضوا لفضائلهم ينقضونها على نحو ما نقض سهل بن هرون فضيلة الكرم فى رسالته التى رواها الجاحظ فى فاتحة بخلائه، ووضعوا عليهم كثيراً من القصص وأنطقوهم أشعاراً لم ينظموها، وتعرضوا لأدواتهم وأسلحتهم فى القتال ولما كانوا يأخذون به أنفسهم فى الخطابة من الاعتماد على العصىّ والقسىّ. وردّ عليهم الجاحظ فى البيان والتبيين[١] وابن قتيبة[٢] وغيرهما ردًّا مُفْحماً. وكانت هذه الدعوة من غير شك سيئة لأنها تدعو إلى تفريق الجماعة الإسلامية وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبها. غير أن ثورة الفرس — فيما يظهر — كانت جامحة، وكان يمدُّها من اعتلوا منهم المناصب الكبرى فى الدولة، وخاصة البرامكة، فانقلبت تلك الدعوة إلى ما يشبه ثورة على العرب، وأُغْرِى شعراؤهم بإعلانها، فإذا بنا نجد بشاراً الذى كان يفخر فى عصر بنى أمية بمواليه القيسيين فى مثل قوله[٣]:

أمنتُ مضرَّةَ الفُحشاء أنى ... أرى قَيْساً تضرُّ ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم ... نباتُ الأرض أخطأه القِطارُ[٤]

وقوله[٥]:

إننى من بنى عُقَيْل بن كعبٍ ... موضعَ السيف من طُلَى الأعناقِ[٦]

يتغيَّر على العرب وكأنما يشعر أن الحياة واتته وأنها استقامت على هواه، فيتبرأ من ولائهم ويرده عليهم، فولاؤه لربه يقول[٧]:

أصبحتُ مَوْلى ذى الجلالِ وبعضهم ... مولى العُرَيْب فَخُذْ بفضلك فافْخَرِ

---

(١) انظر كتاب العصا فى فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين.
(٢) راجع كتاب العرب لابن قتيبة فى رسائل البلغاء نشر محمد كرد على.
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٣٩ وديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣/٢٥٠.
(٤) القطار: المطر.
(٥) أغانى ٣/١٣٩.
(٦) الطلى: أصول الأعناق، واحدتها طلية.
(٧) أغانى ٣/١٣٩.

مولاك أكرم من تميم كلها　　أهل الفَعال[1] ومن قريش المَشْعَرِ
فارجعْ إلى مولاك غيرَ مدافَعٍ　　سبحان مولاك الأجلِّ الأكبر

ويفخر بقومه فخراً عنيفاً ، ويحاول الغَضَّ من العرب بكل ما وسعه ، ومما يصور عُنْف ذلك عنده قصيدته[2] :

هل من رسولٍ مخبرٍ　　عنى جميعَ العربِ
بأنني ذو حَسَبٍ　　عالٍ على ذى الحسب
جَدِّى الذى أسمو به　　كسرى . وساسان أبى
وقيصرٌ خالى إذا　　عددتُ يوماً نسبي

ومضى يتحدث عن أجداده من الفرس وأخواله من الروم وأنهم كانوا ملوكاً متوجين يتحلون بالجواهر ويلبسون الفراء الثمينة ، وذكر ما كانوا يضربونه حولهم من الحجابة ، وكيف كان الوصفاء يسعون بين أيديهم بصحاف الذهب وأوانيه . وافتخر بأن الدولة العباسية قامت على حرابهم ، وعدَّد كثيراً من مظاهر الخشونة عند العرب . وهى شعوبية جامحة دفعته دفعاً إلى أن يهجو العرب بقصيدة أخرى أكثر مرارة[3] . ويُرْوَى أنه دخل على المهدى وقد عرف ثورته على العرب وشعوبيته فقال له : فيمن تعتدُّ يا بشار؟ فرد عليه : أما اللسان والزِّىُّ فعربيان وأما الأصل فعجمى كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئْتُ قوماً بهم جِنَّةٌ　　يقولون : من ذا وكنت العَلَمْ
ألا أيها السائلى جاهداً　　ليعرفنى أنا أنفُ الكرمْ
نمتْ فى الكرام بنى عامرٍ　　فروعى وأصلى قريشُ العَجَمْ

وسأله المهدى : فمن أى العجم أصلك ؟ فقال : من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طُخارستان[4] . ولا يغضب المهدى ولا يثور على

(١) الفعال : الفعل الجميل من الكرم ونحوه .
(٢) الديوان ٣٧٧/١ .
(٣) انظر الديوان ٢٢٩/٣ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣٨/٣ .

نحو ما غضب وثار هشام بن عبد الملك فى العصر الأموى حين افتخر إسماعيل ابن يسار النسائى فى بعض مديحه له بآبائه الفرس[١] . ولم يكن إسماعيل يقصد إلى شعوبية ثائرة على العرب على نحو ما كان يقصد بشار . ومعنى ذلك أن تحولا واضحاً حدث فى الحياة ، حتى أصبح الخلفاء يُغْضون على هذه الشعوبية ، وما يُطْوَى فيها من عصبية جنسية ،وكان من أهم الأسباب فى هذا الإغضاء أن العجم هم الذين دفعوهم إلى منصة الحكم .

وإذا تركنا بشاراً إلى الجيل التالى المعاصر للبرامكة فى زمان الرشيد وجدنا هذه الشعوبية تشتد ، إذ ازداد تأثر الشعراء بالحضارة الفارسية المادية ، ودفعهم ذلك إلى التمرد على التقاليد العربية والإسلامية ، فخرجوا على عادات العرب الاجتماعية ونُظم الإسلام وقوانينه ، ولعل أبا نواس خير من يمثل هذا الجيل ، وأغلب الظن أن ثورته لم تكن ثورة جنسية ، بل كانت ثورة حضارية من نوع خاص ، ثورة الحضارة الفارسية وكل ما اتصل بها من خمر ومجون على العرب وحياتهم الإسلامية ، وهو يثور فى ضجيج وعجيج وصياح وهجوم حتى على الشعر وتقاليده ، على نحو ما نرى فى قوله[٢]:

قل لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَسْ ... واقفًا ما ضرَّ لو كان جَلَسْ
تصف الرَّبْعَ ومن كان به ... مثل سَلْمَى ولُبَيْنَى وخَنَسْ
اترُكِ الرَّبْعَ وسلمى جانبًا ... واصطبحْ كَرْخِيَّةً[٣] مثل القبسْ

وقولـه[٤]:

عاجَ الشَّقِيُّ على رَسْمٍ يُسائلهُ ... وعُجْتُ أسأل عن خَمَّارة البلد[٥]
يبكى على طَلَل الماضين من أسَد ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى: مَنْ بنو أسَد ؟
ومن تَمِيمٌ ومن قيسٌ ولَفَّهما ؟ ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحدِ

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب ، ٤/٤٢٢ وما بعدها .
(٢) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .
(٣) كرخية : خمرة منسوبة إلى الكرخ ، ناحية ببغداد .
(٤) الديوان ص ٢٦٦ .
(٥) عاج : وقف وعطف على المكان .

ولم تقف الشعوبية عند ذلك فقد كان الشعراء من العجم يتعصبون للوزراء منهم حين يَلون الحكم، وكان هؤلاء يغدقون عليهم فى العطاء ، كما كانوا يغدقون على الشعراء من العرب حين يمدحونهم . وقلما وجد فى عصر الرشيد شاعر لم يمدح البرامكة، وتنبّه زعماء العرب للفكرة ، فكانوا يجزلون للشعراء فى عطاياهم ، ومدائح مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة مشهورة ، وكذلك مدائح على بن جبلة فى أبى دُلَف العجلى وحُمَيد الطوسى . وقد جذبوا بنوالهم كثيرين من شعراء الفرس ، ومدائح مسلم بن الوليد فى يزيد بن مَزْيد تدور على كل لسان . وقلْ ذلك نفسه فى الخلفاء ، فقد كان بأيديهم خزائن الدولة ، فملئوا منها حجور الشعراء . وكان ذلك كله باعثاً فى تجويد الشعراء لمدائحهم ومراثيهم حتى أتوا فيها بالعجب العجاب .

اللهو والمجون

لعل مجتمعاً عربيًّا لم يعرف اللهو والمجون كما عرفهما المجتمع العباسى فى القرنين الثانى والثالث ، فقد غرق الناس فى الكوفة والبصرة وبغداد إلى آذانهم فى الحضارة الفارسية المادية وما يُطْوى فيها من غناء وخمر . وحقًّا بدأت طلائع ذلك فى أواخر العصر الأموى حين ظهر الوليد بن يزيد وحين أخذت الكوفة تسرف على نفسها فى اللهو وما يتبعه ، لكن ذلك لا يقاس فى شىء إلى ما كان فى العصر العباسى الذى شعر فيه الفرس بحريتهم ، حتى لتأخذ شكل ثورة عاصفة على جميع التقاليد العربية . ومضى أبناء هذه الثورة يعبُّون من كئوس اللهو والخمر حتى الثمالة ، وانتشرت دورهما فى كل مكان ، ولم تكن تزخر بالخمر والغناء وحدهما ، بل كانت تزخر أيضاً بالقيان والغلمان .

وساعد فى اتساع هذه الموجة شيئان : ظهور مذاهب شاكّة بلبلت الأفكار وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين، ثم انتشار دور القيان ، التى كانت تعرضهن للبيع ، وكانت تثقفهن وتؤدبهن وتعلمهن الغناء، ومر بنا فى الفصل السابق تفصيل الحديث عن هذه الحركة وأثرها فى الشعر ومعانيه وأوزانه . وهى لم تقف

عند ذلك فإن أصحاب هذه الدور كانوا يتخذونهن لتسلية رُوَّادها وابتزاز أموالهم ، فكانت مألفاً للشعراء يختلفون إليها ، وكانوا ينظمون فيهن أشعارهم ، وهن يغنينهم فيها ، بينماهم يشربون ويقصفون . ومن غير شك كنّ من أهم الأسباب فى إذاعة الشعر العباسى الحديث عند مطيع بن إياس وبشار وأبى نواس وأضرابهم ، إذ كنّ يحملنه معهم حين يُبَعْنَ ، فيدخلنَ به فى دار الخلافة ودور الأشراف ، كما ينقلنه إلى الأمصار الإسلامية اللائى يرحلن إليها .

ويصوّر كتاب الأغانى الضخم هذا الجانب العابث من الحياة العباسية ، جانب القيان وغنائهم والأغانى التى تغنوا بها وأخبارهن مع الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دورهن وما نشأ بينهم وبين هؤلاء القيان أو الجوارى من حب ، صوّروه تصويراً طريفاً فى أشعار ،كنّ يتغنين بها ،وذاعت فى كل مكان . وقلما يلمع شاعر إلا وله جارية أو جوار يُذْعِنَ شعره ، فلمطيع بن إياس جواريه ، ولبشار جواريه الأخرى ، واشتهر غير شاعر بجارية وقف عليها شعره ، اشتهر أبو نواس بجنان ، واشتهر أبو العتاهية بعُتْبة والعباس بن الأحنف بفوز ومحمود الوراق بسكن وسعيد بن حُمَيْد بفضل . وكان مسلم بن الوليد يلقّب بصريع الغوانى .

وطبيعى أن تكون حياة هؤلاء القيان والجوارى حياة ماجنة ، ليس فيها طهر إلا شذوذاً ، وصوّر الجاحظ العلة فى ذلك ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسبُ الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدنْ مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخلعاء والمجّان ومن لا يُسْمَع منه كلمة جِدّ ،ولا يُرْجَع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وترْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ،وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض ، عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيبٌ من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذِكْرِ . العشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم

لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذ من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش^(١) . . » . وهؤلاء الجوارى كن يختلفن ما بين عَوَّادة وزامرة وصَنَّاجة ورقاصة وطنبورية ودَفَّافة . وكانت كثيرات منهن يحسنَّ الشعر كما يحسن الغناء . يقول أبو الفرج فى دنانير جارية البرامكة : « كانت من أحسن الناس وجهًا وأظرفهم وأكملهم وأحسنهم أدباً وأكثرهم رواية للغناء والشعر^(٢) » ويقول فى متيَّم « كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدَّبت وغنَّت ، وأخذت عن إسحق الموصلى وعن أبيه من قبله . . . وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناء وأدباً ، وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ، ولكنه يستحسن من مثلها^(٣) » ويقول فى عَريب : « كانت مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخَطّ والمذهب فى الكلام ونهاية فى الحسن والجمال والظَّرْف وحُسْن الصورة وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر والأدب^(٤) » . وكن يستخدمن معرفتهن بالشعر فى اجتذاب الرجال إليهن بوسائل مختلفة ، إذ كن يكتبن أبياتاً مثيرة على عصائبهن ومشادّ الطُّرَرِ والذوائب وعلى المناديل والوسائد والأسرة أو يكتبنها بالحِنَّاء على الأقدام^(٥) ، ويروى بعض العباسيين أنه رأى عَريب وعليها قميص موشَّح بالذهب مكتوب فى وشاحه :

وإنى لأهــواه مسيئــاً ومحسنًا ... وأقضى على قلبى له بالذى يَقْضى
فحتى متى روحُ الرضا لا ينالنى ... وحتى متى أيام سخطك لا تَمْضى^(٦)

وترجم ابن المعتز فى آخر طبقاته لطائفة منهن كن يحسنَّ الشعر^(٧) ، لعل أهمهن فضل عاشقة سعيد بن حُمَيْد ، وشعرها فى الأغانى يصور عشقها له ومراحله^(٨) .

وقد بعثت هؤلاء الجوارى فى الكوفة والبصرة وبغداد لهواً واسعاً على نحو

---

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فنكل) ص ٧٢ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٣٠ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٥٣ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٧٥ .
(٥) الموشى للوشاء (طبعة مصر) ص ١٧٢ وما بعدها .
(٦) الموشى ص ١٧٣ .
(٧) انظر الطبقات ص ٤٢١ وما بعدها .
(٨) أغانى (طبعة الساسى) ٢١/١١٤ .

obeikandi.com

ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع عند مطيع بن إياس : طليعة اللهو الماجن فى الكوفة وتبعته جماعته هناك من أمثال والبة والحمادين الثلاثة : حماد عجرد، وحماد بن الزِّبْرقان، وحماد الراوية . وكان بشار فى البصرة لا يتغنى بالخمر فحسب ، بل أكثر ما يتغنى به وصف ما يدور بين المرأة والرجل من علاقات حسية . ثم ظهر أبو نواس والحسين بن الضحاك الخليع وجيلهما فبلغوا من تصوير اللهو والمجون والشذوذ كل مبلغ ، وكأن الحياة لم يعد فيها إلا العبث والفجور والاختلاف إلى الحانات ودور القيان ، رَوَى الأغانى أنه اجتمع يوماً أبو نواس والحسين بن الضحاك وأبو العتاهية وهم مخمورون ، فقالوا أين نجتمع ؟ فقال القراطيسى :

ألا قومـــوا بأجمعكم ... إلى بيت القـــراطيسى
لقـــد هَيَّا لنا النُّزُلَ ... غـــلام فارهٌ طوسى
وقد هَيَّا الزجاجات ... لنا من أرض بلقيس
وقينـــاتٍ من الحور ... كأمثال الطواويس[1]

وكان بيت القراطيسى من بيوت القيان الكبيرة التى كان يجتمع فيها الشعراء، ومثله بيت ابن رامين[2] وبيوت أخرى كثيرة كانت لياليها كأنها أعراس ، يحتفل فيها الشعراء بحبهم وبمجونهم وإثمهم، فإن تركوها فإلى ليالى يحيونها فى بيوت الأعيان والأشراف بين السماع والعزف والقصف والخمر والعواطف الشاذة وغير الشاذة ، ومن خير ما يصور هذا المجتمع الماجن قصيدة أبى العتاهية[3] :

لَهْفى على الزمن القصـــيرِ ... بين الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ[4]
إذ نحن فى غُرَف الجنا ... ن نعوم فى بحر السُّرور
فى فتيـــةٍ ملكـــوا عِنا ... ن الدهر أمثالِ الصقور

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٩ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٣/١٢٢ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٦٠ .
(٤) الخورنق والسدير : قصران تروى الأساطير أن النعمان الأكبر بناهما بالقرب من الكوفة .

يتعاورون مُدامةً صَهْباءَ من حَلَبِ العصيرِ (١)
عذراءَ ربّاها شعا عُ الشمس فى حَرِّ الهجير
لم تُدْنَ من نارٍ ولم يعلق بها وضَرُ القُدور (٢)
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما مَ القوم كالرَّشأ الغرير
بزجاجةٍ تستخرج السِّـ رَّ الدفينَ من الضمير
زهراءَ مثل الكوكب الـ دُرِّىِّ فى كف المُدير
تدع الكريم وليس يدْ رى ما قَبيلٌ من دَبيرِ (٣)
ومخصَّرات زُرْنَنا بعد الهدوِّ من الخدور (٤)
ريَّا روادفُهن يَلْـ بَسْنَ الخواتم فى الخصور (٥)
غُرِّ الوجوه محجَّبا تٍ قاصرات الطَّرْف حُور (٦)
متنعِّمات فى النعـ يمِ مضمَّخات بالعَبير (٧)
يرفُلْنَ فى حُلَل المحا سن والمجاسد والحرير (٨)

ولم تكن حياة أبى العتاهية كلها لهواً ومجوناً ، فقد انصرف عن هذا العبث وتلك الخلاعة إلى الزهد . وربما كان أبو نواس أهمّ من حمل ذنوب عصره على ظهره، فقد عاش حياة متهتكة آثمة يندى لها جبين الأخلاق والآداب الاجتماعية ، واشتهر بإجادته لفن الخمريات إذ نظم فيها أروع شعره ، حتى عُدّ شاعر الخمر فى العربية، وهو حقًّا لا يبارَى فى التغنى بها ، إذ كانت تملك عليه شغاف قلبه على نحو ما نرى فى قوله (٩) :

أثْنِ على الخمر بآلائها وسَمِّها أحسن أسمائها

---

(١) يتعاورون : يتداولون .
(٢) الوضر : الأذى والدنس .
(٣) القبيل : ما قابلك ، والدبير : ما خالفك ، والعبارة كناية عن أنه لا يدرى شيئاً .
(٤) مخصرات : دقيقات الخصور ، والهدو: أوائل الليل .
(٥) ريا : ممتلئة .
(٦) قاصرات الطرف : حابسات عيونهن عن النظر إلى الرجال .
(٧) مضمخات : مطيبات ، والعبير : أخلاط من الطيب والزعفران .
(٨) المجاسد : جمع مجسد ، وهو القميص الذى يلى البدن .
(٩) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٣٩ .

obeikandi.com

فهي وثنه وصنمه . وذهب يعلن فى جرأة أن هذا الصنم هو الذى ينبغى أن يقف به الشعراء ويطوفوا حوله ، لا حول الأطلال والنساء البدويات ، فقد تغيرت الحياة وخلف تلك النساءَ جوارٍ حسانٌ تشعُّ منهن الفتنة والإغراء، ومن قوله فى ذلك[١] :

لا تَبْكِ لِيلى ولا تَطْرَبْ إلى هندِ … واشربْ على الورد من حمراء كالوَرْدِ
كأسًا إذا انحدرتْ فى حلْقِ شاربها … أجْدَتْه حُمْرتها فى العين والخدِّ[٢]
فالخمر يا قوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ … فى كف جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من طَرْفها خمراً ومن يدها … خمراً فمالك من سُكرين من بُدِّ

وما يزال يصف الخمر وسقاتها وندمانها وكئوسها ودنانها ومجالسها وما بها من أزهار وريحان وقيان وغلمان . وتحدث فى غير خمرية إلى أصحاب حاناتها من اليهود والمجوس والنصارى ، وأفاض فى وصف خمر الأديرة ورهبانها وراهباتها ، وكان يكثر من الإلمام بدير حَنَّة ، وفيه يقول[٣]:

يا دَيْرَ حَنَّةَ من ذات الأُكَيْراح … من يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصاحى
رأيت فيك ظباءً لا قرون لها … يَلْعَبْن منا بألبابٍ وأرواحِ

ومما يميزه فى خمرياته تنويعه فى معانيها وإحكامه لتأليفها حتى لتبدو الوحدة العضوية تامة فى كثير من مقطوعاتها ، وفى أثناء ذلك يعبر عن شغفه بها وذكرياته لها على شاكلة قوله[٤]:

ودار نَدامى عطَّلوها وأدْلَجُوا … بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ[٥]
مساحبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى … وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابس[٦]
حبستُ بها صحبى فجددت عهدهم … وإنى على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثًا … ويومًا له يوم الترحُّل خامس

(١) طبقات ابن المعتز ص ٧٣ .
(٢) أجدته : أعطته .
(٣) الديارات النصرانية فى الإسلام لحبيب زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ .
(٤) طبقات ابن المعتز ص ٢٠٦ .
(٥) أدلجوا : ساروا الليل كله أو آخره .
(٦) الزقاق : جمع زق ، وهو دن الخمر ، أضغاث : أخلاط .

obeikandi.com

تُدار علينا الرّاحُ فى عَسْجَدِيَّةٍ … حَبَتْهــا بألوان التصاوير فارسُ[١]

قرارتُها كسرى وفى جَنَباتها … مَهًا تَدَّريها بالقِسىِّ الفوارسُ[٢]

فللخمر ما زُرَّتْ عليه جُيوبُها … وللمـــاء ما دارتْ عليه القلانسُ[٣]

والذكرى تعبق بنفسه لتلك الدار فيصفها على طريقة وصف المحبين لأطلال محبوباتهم وما بقى من آثار ديارهن، فيقول إن ندامى انصرفوا عنها ولا يزال فيها من آثارهم أضغاث ريحان رطبة ويابسة، ولا يزال بها علامات جَرِّ الزقاق . وقد عاج بها مع صحبه فقضى حقها من الوقوف بها ، بل من المكث خمسة أيام يقصف ويشرب وينتشى . ويصف الكأس التى كانوا يتداولونها ويقول إنها كأس ذهبية رُسمت عليها تصاوير فارسية ، تمثِّل كسرى فى صيده مع فوارسه . وكانوا يصبُّون فيها الخمر حتى تبلغ أطواق الثياب ، ثم يضيفون الماء حتى يدور بالقلانس . وانظرْ إلى هذه الأبيات التى يقولها فى إحدى خمرياته[٤] :

صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحتَها … لو مَسَّها حَجَرٌ مسَّتْه سَرَّاءُ

رقَّتْ عن الماء حتى ما يلائمها … لطافــةً وجَفَا عن شكلها الماء

فلو مزجتَ بها نورا لمازجَها … حتى تولَّد أنوارٌ وأضواءُ

دارت على فِتْيةٍ دان الزمان لهم … فما يصيبهم إلا بما شاءوا

فقُلْ لمن يدَّعى فى العلم فلسفةً … حفظتَ شيئًا وغابتْ عنك أشياءُ

فإنك تحس عمق لذة أبى نواس بالخمر ، حتى لتصبح هذه اللذة فلسفة له فى الحياة ، بل إنه ليزعم لأصحاب الفلسفة الكلامية من أمثال النظَّام أنه ينقصهم جزء مهم من فلسفتهم، هو فلسفة الخمر أو هو فلسفة اللذة والنشوة بها. وذهب يُعْلِنُ هذه الفلسفة ، ويعلن معها استخفافاً بالدين وعقائده التى تحرِّمها وتحرم معها جملة الآثام التى كان يرتكبها على نحو ما نرى فى قوله[٥] :

وخُذْها إن أردت لذيذَ عيْشٍ … ولا تَعْدِلْ خليلى بالمُدَامِ

---

(١) عسجدية : كأس ذهبية .

(٢) المها : البقر الوحشى . تدريها : تخاتلها .

(٣) الجيوب : أطواق القمصان والثياب .

(٤) الديوان ص ٢٣٤ .

(٥) الديوان ص ٣٢٧ .

وإن قالوا حرامٌ قل حـرامٌ   ولكن اللذاذةَ فى الحـرامِ

وقولـه(١) :

الرّاح شيءٌ عجيبٌ أنت شاربها   فاشربْ وإن حمَّلتك الراحُ أوزارا
يا مَنْ يلوم على حمراءَ صافيةٍ   صِرْ فى الجِنان ودعنى أسكن النارا

ودفعه ذلك إلى كثير من الإلحاد ، يذيعه فى خمرياته ، متعابثاً متماجناً ، وأكثرُ هذا التعابث والتماجن إنما كان يأتيه فى أثناء سكره وشربه ، فهو ليس إلحاداً صادراً من قلبه ، وإنما هو عربدة وخلاعة ، حتى لينكر البعث والنشور ، فى مثل قوله(٢) :

وملحّةٍ باللوم تحسب أننى   بالجهل أوثر صحبة الشُّطّارِ
بكرتْ علىّ تلومنى فأجبتها   إنى لأعرف مذهب الأبرارِ
فدَعى الملام فقد أطعتُ غوايتى   وصرفتُ معرفتى إلى الإنكارِ
ورأيت إتيانى اللـذاذة والهوى   وتعجُّلاً من طيب هذى الدارِ
أحرى وأحزم من تنظُّر آجلٍ   علمى به رَجْمٌ من الأخبارِ
ما جاءنا أحـدٌ يخبر أنـه   فى جنةٍ من مات أو فى النـارِ

ولم يكن الحسين بن الضحاك يقلُّ عنه خلاعة . وكان مثله يكثر من الغزل بالغلمان ، ويظهر أنه كان من ذوق هذا العصر ومُجّانه الآثمين أن يكون الغلام ألثغ أغنَّ الصوت ، يتطيَّب ، ويصفِّف شعره ويجعله كالعقرب على صُدْغه ، يقول الحسين فى غلام(٣) :

بأبى ماجن السَّريـ   ـرة يُبْـدى تعفُّفا
حفّ أصداغه وعَقْـ   ـربهـا ثم صفّفا
وحشا مدْرَج القُصا   ص بمسكٍ ورصّفا

ويَرْوى الأغانى للحسين كثيراً من المقطوعات فى وصف الغلمان ، مما يدل

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٧٨ وما بعدها والوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٦٣ وما بعدها .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٧ / ١٨٠

obeikandi.com

على أنه كان مولعاً بالشذوذ الجنسى ، ومما رَوَى له من ذلك قوله فى غلام[1] :

عــالمٌ بِحُبِّيــه ... مُطْرِقٌ من التِّيهِ
يوسفُ الجمال وفــر ... عونُ فى تعــدِّيه
لا وحقٍّ ما أنا من ... عَطْفِــه أرجِّيه
ما الحيــاة نافعــةٌ ... لى على تأبِّيــه
النعــيمُ يشــغلهُ ... والجمــال يُطْغيه
فهو غير مكترث ... للــذى ألاقيــه
تائــهٌ تزهّــدهٌ ... فىَّ رغبتى فيــه

والولع بالغلمان كان آفة من آفات هذا العصر ، ومن يقرأ الأغانى يُخيَّل إليه أن هذا الولع كان عامًّا بين الشعراء ، وكانت دور اللهو تعجّ بهم ، فقلما توجد دار لهو دون أن يكون فيها ظبي غَرير أو ظبية غَريرة بل ظباء مختلفة ، ولعلنا لا نغلو إذا زعمنا أن ما خلَّفه العصر العباسى من الغزل الشاذ بالغلمان يعدل ما خلفه من الغزل بالجوارى والقيان . وكان الشعراء فى هذا الغزل جميعه لا يعبرون غالباً عن عواطف روحية ، إنما يعبرون عن لذائذ حسية مسفَّة . وتعلَّق الحسين على شاكلة أبى نواس بالأديرة ووَصْف قساوسَتها ورهبانها ، ومن قوله فى دير مَدْيان[2] :

يا دَيْرَ مَدْيان لا عُرِّيتَ من سَكَنٍ ... هَيَّجْتَ لى سَقما يا دير مدْيانا
هل عنــد قَسِّك من علمٍ فيخبرنا ... أم كيف يُسْعف وجه الصَّبْر مَنْ بانا
حُثَّ المدام فإن الكأس مترعةٌ ... مما يهيج دواعى الشوق أحيانًا

وأكثر الشعراء من التغنى بالأديرة وخمورها ، حتى ليؤلف ذلك ديواناً ضخماً من دواوين الشعر العباسى ، ولعل ذلك ما جعل القدماء يكثرون من التأليف فى هذا الموضوع ، وربما كان أهم شاعر أكثر من النظم فيه فى أثناء القرن الثالث الهجرى هو ابن المعتز ، فديوانه يطفح بالحديث عن الأديرة كدير المطيرة ودير السوسى

(١) أغانى ٧/١٨٥ . (٢) أغانى ٧/١٩٣

ودير عَبْدون ، وفيه يقول[١] :

سقَى الجزيرة ذات الظل والشجرِ ⁂ وَديْرَ عبدون هَطَّالٌ من المطرِ
يا طالما نَبَّهتني للصَّبوح به ⁂ فى ظلمة الليل والعصفورُ لم يَطرِ
أصواتُ رهبانِ دَيْرٍ فى صلاتهمُ ⁂ سود المدارع نَعَّارين فى السَّحَرِ

ويظهر أن الرهبان كانوا يعنون بخمورهم ، فتعلق بها الشعراء ، وطلبوها من كل دَيْر ، ووصفوا ما لذ لهم منها وطاب كشراب القربان الذى يقول فيه ابن المعتز[٢] :

أسكنوها فى الدَّنِّ من عهد نوحٍ ⁂ كظلام فيه نهارٌ حبيسُ
من شراب القُرْبان يوصى بها الشَّمَّـ ⁂ ـاسُ خُزَّانَ بيتها والقسوسُ

والحق أن كثيراً من الشعراء فى القرنين الثانى والثالث أسرفوا على أنفسهم فى اللذات ، تدفعهم إلى ذلك الحضارة المادية التى عاشوها ، وذهبوا يصورون ذلك فى صراحة صريحة وإباحية سافرة ، لا يردعهم خلق ولا دين ، فخلفوا لنا دواوين ضخمة من أدب عار مكشوف ، قلما عرف أصحابه شيئاً من الخجل والحياء .

الزندقة والزهد

رأينا الفرس يسيطرون بحضارتهم المادية على حياة الشعر والشعراء . فإذا تلك الحياة تُطْبَعُ بطوابع قوية من اللهو والمجون . وأخذوا ينقلون تراثهم الأدبى الفارسى بكل ما فيه من معتقدات دينية عُرفت بين آبائهم ، فنقلوا «الأفستا» كتاب داعيتهم زرادشت وما كان يذهب إليه من أن فى العالم إلهين : إلهاً للخير والنور هو أهورا مزدا وإلهاً للشر والظلمة هو دروج أهرمن . وكان هذا الكتاب يشتمل على صلوات ومواعظ . وظهر بعده مانى ومزج بين عقيدته والنصرانية ودعا إلى زهد شديد ، وأخذ يفسر كتاب الأفستا تفسيراً عقليًّا ، فعدوه فى أول الأمر مارقاً ، وسموا أتباعه زنادقة أى ملحدين ، ولم تلبث تعاليمه أن عمت فى بلاد الفرس . ولم يستطع مزدك داعيتهم الثالث الذى ظهر فى أواخر القرن الخامس الميلادى أن

(١) الديارات لحبيب زيات ص ٢٩ . (٢) الديارات ص ٤١ .

يكسر من تعاليم المانوية أو أن يخضد من شوكتها . وظل الإيرانيون بعد الإسلام يتعلقون بها ، حتى إذا انتهينا إلى زمن العباسيين وجدناها لا تزال حية مزدهرة ، ولا يزال كثير منهم ثنويا يؤمن بإلهى النور والظلمة . وكان نَفَرٌ منهم يعلن إسلامه فى الظاهر ويضمر فى الباطن تلك الزندقة أو تلك المانوية وما أذاعه مانى من عقائد وتعاليم ، ويشرح الجاحظ طرفاً من هذه التعاليم فيقول[1]:

« إن المانيَّة تزعم أن العالم بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسَّة وحارّة ، وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون فى كل إنسان من رُجْحان أجناس الخير على أجناس الشر ورجحان أجناس الشر على أجناس الخير ، وأن الإنسان وإن كان ذا حواسَّ خمسة فإن فى كل حاسة متوناً من ضده من الأجناس الخمسة ، فمتى نظر الإنسان نظرةَ رحمة فتلك النظرة من النور ومن الخير ، ومتى نظر نظرة وعيدٍ فتلك النظرة من الظلمة ، وكذلك جميع الحواس . وإن حاسة السمع جنس على حدة وإن الذى فى حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذى فى حاسة السمع من الخير ولكنه لا يضادُّه ولا يفاسده ولا يمنعه ، فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لأنه ليس ضدًّا . وإن أجناس الشر خلاف لأجناس الشر ضد لأجناس الخير ، وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يتضادُّ . وإن التعاون لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادها ، وإنما يقع بين متفقها » . وكان مانى يحرم ذبح الحيوان ، ودعا إلى الزهد فى الحياة والتقشف ، وفرض على أتباعه صلوات كانوا يستقبلون بها الشمس ، فيدعون ويزمزمون .

وكلمة زنديق أى مانوىّ ليست عربية وإنما هى فارسية ، عُرِّبت وأطلقت بنفس الاصطلاح الذى كانت تطلق به فى بيئتها الأصلية أى على أصحاب مانى ، وقد كثر هؤلاء الزنادقة منذ فاتحة العصر العباسى ، حتى إذا كنا فى عصر المهدى وجدنا موجتها تبلغ أقصى حدتها ، حتى يضطر إلى اتخاذ ديوان للفحص عنهم والتنكيل بهم ، وأكبر الظن أنه لم يجد فيهم خطراً على الإسلام وحده ،

---

(١) الحيوان ٤/٤٤١ .

بل رآهم أيضاً خطراً على دولته ، وكذلك شعَر الخلفاء من بعده ، وخاصة لتلك الثورات التى كانت تنشب ضدهم فى إيران مثل ثورة المقنَّع الخراسانى الذى كان يزعم أن الذات الإلهية تجسدتْ فى أبى مسلم ثم حلَّتْ فيه ، ومثل ثورة خليفته بابك الخُرَّمى لعهد المأمون . ويُجْمل لنا المهدى تعاليمهم فى وصيته لابنه الهادى إذ يقول له[١] :

« يا بنىّ إن صار لك الأمر فتجرَّدْ لهذه العصابة (الزنادقة) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجهم إلى تحريم اللحم ومَسِّ الماء الطَّهور وترك قتل الهوامّ تحرجاً وتحوُّباً ، ثم تخرجهم من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارْفَعْ فيها الخشب وجَرِّدْ فيها السيف ، وتقرَّبْ بأمرها إلى الله لا شريك له » .

ولم يُقم المهدى لهم ديوان الزنادقة فحسب ، بل دعا أيضاً المتكلمين والمعتزلة للرد عليهم وتأليف الكتب فى نقض عقيدتهم ، ومن يقرأ الحيوان للجاحظ يرى إلى أى حد شغَل المعتزلةُ من أمثال النظّام أنفسهم بمناظراتهم ودَحْض معتقداتهم ، فهم وأمثالهم من الدهريين شُغْلهم الشاغل . ويسوق الجاحظ ثبتا طريفاً يضم من كان يتزندق من الشعراء ، وهم — حسب إحصائه — الحَمَّادون الثلاثة : حماد عَجْرد وحماد الراوية وحماد بن الزِّبْرِقان ويونس بن أبى فَرْوة وعلى بن الخليل ويزيد بن الفيض ويونس بن هرون وعمارة بن حمزة وجميل بن محفوظ ومطيع بن إياس وقاسم بن زنقطة ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد[٢] . ويتعجَّبُ من زندقة أبان ويقول[٣] :

« أما اعتقاده فلا أدرى ما أقول لك فيه ، لأن الناس لم يُؤْتَوْا فى اعتقادهم الخطأ المكشوفَ من جهة النظر ، ولكن للناس تأسٍّ وعاداتٌ وتقليد للآباء

---

(١) الطبرى (طبعة أوربا) ٣/٥٨٨ . وقارن بأمالى المرتضى ١/١٣١ .
(٢) انظر الحيوان ٤/٤٤٦ وما بعدها (٣) الحيوان ٤/٤٥١ .

والكبراء ، ويعملون على الهوَى ، وعلى ما يسبق إلى القلوب ، ويستثقلون التحصيلَ ويهملون النظر ، حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه نظروا بأبصار كليلة وأذهان مدخولة ومع سوء عادة . والنفس لا تجيب وهى مستكرَهة ، وكان يقال : العقل إذا أُكْرِه عَمِيَ . ومتى عمى الطبع وجَسا وغلظ وأهْمل حتى يألف الجهل لم يكد يفهم ما عليه وله . فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق إلى القلب » .

ويظهر أن أصحاب هذه الدعوة من الفرس كانوا لا يكتفون باعتناقها ، فقد كانوا يدعون إليها مَنْ حولهم ، ودخل فى اعتقادهم غير عربى مثل مطيع بن إياس الكنانى ووالبة بن الُحباب الأسدى إن صحَّت عروبتهما . على أننا نلاحظ أن كثيرين ممن كانوا يتَّهمون بالزندقة فى العصر إنما اتهموا بها من أجل فسقهم ومجونهم واستجابتهم لغرائزهم الشاذة ، ونحن لا نستطيع أن نبرئ منها مطيعاً ، فقد أحْضرت ابنته إلى الرشيد للتحقيق معها فى تهمة الزندقة ، فأقرَّت بها ، وقالت : « هذا دين علَّمنيه أبى » . وهناك جماعة قُتلوا بها ، ونفس قتلهم يشهد شهادة قاطعة بزندقتهم ، فقد قتَل المهدى بشاراً ، وإذا رجعنا إلى شعره وجدناه يشيد بعبادة النار فى بيته المشهور[1] :

الأرض مُظلمةٌ والنار مشرقةٌ ... والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

واستمد من ذلك دليلا على أن إبليس خير من آدم ، لأنه خُلق من نار ، أما آدم فخلق من طين ، فقال[2] :

إبليسُ أفضل من أبيكم آدم ... فتنبَّهوا يا معشر الفُجَّارِ
النارُ عنصره وآدمُ طينةٌ ... والطينُ لا يسمو سُمُوَّ النارِ

ولما كثُر منه ذلك نادى واصل بن عطاء فى الناس أن يقتلوه ، ففرَّ من البصرة ولم يزل غائباً عنها حتى توفِّى واصل ، بل حتى توفى عمرو بن عبيد ، وردَّ عليه صفوان الأنصارى بشعر مفحم[3] غير أنه عاد إلى البصرة وعادت معه زندقته ، حتى سفك

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ .
(٢) رسالة الغفران (نشرة كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٧ وما بعدها .

المهدىُّ دمه . وممن قتله المهدى على الزندقة صالح بن عبد القُدُّوس الأزدى ، وكان يعلن فى البصرة مذهبه فى الثنوية . ويقال إن أبا الهذيل العلاف المتكلم ناظره فقطعه ، ثم قال له : على أى شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأومن بالاثنين . ولما علم بأن ديوان الزنادقة يرصده هرب إلى دمشق ، فطلبه المهدى وزجَّ به فى سجن تلك الفئة الباغية ، حتى يحاكَم ، فقال فى سجنه :

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
قُبِرْنا ولم نُدْفن فنحن بمعزلٍ من الناس لا نُخْشى فنُغْشى ولا نَغْشى

وقيل إنه صَلَّى صلاة تامة الركوع والسجود ، فقيل له : ما هذا ومذهبك معروف ، قال : سُنَّة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد . وأُحْضِر للمحاكمة بحضرة المهدى فنوظر فيما اتُّهم به من الزندقة ، فأظهر التوبة ، فقال له المهدى ألست القائل فى حفظك ما أنت عليه :

رُبَّ سرٍّ كتمتُه فكأنى أخرسٌ أو ثَنَى لسانىَ خَبْلُ
ولو انى أبديتُ للناس علمى لم يكن لى فى غير حَبْسىَ أَكْلُ

قال : فإنى أتوب وأرجع ، فقال له المهدى : هيهات ! ألست القائل :

والشيخُ لا يترك أخلاقَهُ حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ
إذا ارْعَوَى عاوده جهلُه كذى الضَّنا عاد إلى نُكْسِهِ

ثم قُدِّم ، فقُتل وصُلب على الجسر ببغداد[١] . ووراء صالح وبشار شعراء كانوا زنادقة حقًّا ، ولم يقتلوا ، وكأن التهمة لم تثبت عليهم فى جلاءٍ لديوان الزنادقة والقائمين عليه . ومن كبار الزنادقة حماد عجرد ، يقول أبو نواس : «كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حُبِست فى حَبْس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرءون به فى صلاتهم[٢] » . وأبو نواس خير من يصور الصنف الثانى من الزنادقة التى كانت تُلْصَق بهم هذه التهمة بسبب مجونهم ، وبسبب ما قد يَبْدرُ على

---

(١) انظر فى أخبار صالح أمالى المرتضى ١٤٤/١ وما بعدها وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣٠٣/٩ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ٣٢٤ .

ألسنتهم فى قَصْفهم وشربهم من أبيات مارقة على شاكلة قوله[١] :

يا ناظرا فى الدين ما الأمــرُ لا قــدرٌ صحّ ولا جَبْرُ
ما صحّ عندى من جميع الذى تذكــر إلا الموت والقَــبْرُ

ولكن هذا كان تعابثاً ومجانة ، وكان القائمون على ديوان الزنادقة يميِّزون بينه وبين الزندقة الحقيقية ، فيكتفون بحبس أبى نواس حين يأمرهم بعض الخلفاء أو بعض الوزراء تعذيراً له ، حتى يرتدّ عن غيِّه .

على أن هذا الجانب فى حياة المجتمع العباسى وما انطوى فيه من زندقة ومجون ينبغى أن لا يضع غشاوة على أعيننا فلا نرى هذا المجتمع على حقيقته . لقد كان فيه لهو وترف ، وكانت تحفّه عقائد الزنادقة والدهريين ، ولكن ذلك إنما كان يشيع فى بعض البيئات وفى دور المجانة والخلاعة . أما بعد ذلك فقد كانت هناك كثرة ممن يتّبعون سبيل الرشاد ، وكان هناك الزهاد والعباد من أمثال عمرو بن عبيد وموسى بن سيّار الأسوارى وعمرو بن فائد والقاسم بن يحيى وصالح المرِّى ، هؤلاء الذين ملأوا العراق بزهدهم ومواعظهم . وكان هناك تلاميذ أبى حنيفة وابن حنبل وأضرابهما من أصحاب الشريعة الإسلامية وحَملة الحديث . وكان هناك المعتزلة الذين وهبوا أنفسهم للذود عن حياض الإسلام والرد على الملاحدة والزنادقة . وكان هناك رابعة العدوية وأمثالها من الزاهدات .

فموجة الزهد لم تكن أقل حدة من موجة المجون ، ويُظَنّ أنه دخلتها عناصر أجنبية مختلفة من زهد الهنود ، وزهد المسيحية ورهبانها ، وحتى من زهد المانوية . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا رأينا بعض الشعراء الماجنين مثل أبى نواس تجرى على ألسنتهم أشعار رقيقة فى الزهد[٢] :

وكان صالح بن عبد القدوس على زندقته يكثر من الترغيب عن الدنيا والزهد فيها ، ولا ينى يذكر الموت والقبر[٣] . وكان شعره كله أمثالا وحِكماً ،

(١) انظر الوساطة ص ٦٣ والموشح ص ٢٧٦ .

(٢) انظر باب الزهد فى ديوان أبى نواس .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩١ .

حتى قالوا إن ديوانه يشتمل على ألف مثل عربى وألف مثل أعجمى[١] ، ويعجب ابن المعتز مما يُرْوَى عنه من زندقته، ويَرْوى له بعض أشعار زاهدة[٢] من مثل قوله :

وليس بعجزِ المرء إخطاؤه الغنى ... ولا باحتيالٍ أدرك المالَ كاسبُهْ
ولكنه قبضُ الإله وبَسْطُه ... فلاذا يجاريه ولاذا يغالبُه
إذا كمَّل الرحمن للمرء عقلَهُ ... فقد كملتْ أخلاقه ومناقبه

وقوله فى أصحاب القبور :

ألا أحدٌ يبكى لأهل محلَّةٍ ... مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهمُ لم يعرفوا غير دارهم ... ولم يعرفوا غير التضايق والبلوى

وقوله :

فوحقِّ منْ سَمَكَ السماءَ بقدرة ... والأرضَ صيَّر للعباد مهادا
إن المصرَّ على الذنوب لهالكٌ ... صَدَّقتَ قولى أو أردت عنادا

وربما كان أكبر من تغنَّى بالزهد فى هذا العصر أبو العتاهية ، وقد بدأ حياته ماجناً أشد ما يكون المجون ، ثم حانت منه التفاتة فزهد فى حُطام الدنيا ولبس الصوف ، وأخذ يتغنى بالموت والفناء وما ينتظر الناس من ظلمة القبر ووحشته على شاكلة قوله[٣] :

حتى متى أنت فى لهوٍ وفى لعبٍ ... والموتُ نحوكَ يهْوى فاغراً فاهُ ؟
ما كل ما يتمنى المرءُ يدركه ... رب امرىء حَتْفُه فيما تمنَّاه
تغرَّ للجهل بالدنيا وزخرفها ... إن الشقىَّ لَمَنْ غرَّتْه دنياه
كأن حيَّاً وقد طالتْ سلامتُه ... قد صار فى سكرات الموت تغشاه
نلهو وللموت مُمْسانا ومُصْبَحنا ... من لم يصبِّحه وَجْهُ الموت مسَّاه

وما يزال على هذا النحو يتحدث عن مصير الإنسان الذى ينتظره وأن من

---

(١) التحفة البهية ٢١٧ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٩١ وما بعدها .
(٣) ديوان أبى العتاهية (طبعة بيروت سنة ١٨٨٦) ص ٢٩٢ .

الخير أن يقدِّم لهذا المصير العملَ الصالح ، قبل أن تفيض روحه وينكشف عنه الغطاء . ونراه يكثر فى أثناء ذلك من الابتهالات ومن الدعاء ، منقبضاً عن الدنيا وملاذها وكل ما فيها من متاع ، بل إنه ليقبِّح هذا المتاع وما يُطْوَى فيه من نعيم حتى ليقول[١] :

رغيفُ خُبْزٍ يابسٍ   تأكلـه فى زاويَهْ
وكـوزُ مـاء بارد   تشربـه من صافيـه
وغـرفةٌ ضَيِّقَـةٌ   نفسُك فيهـا خاليه
خيرٌ من الساعات فى   ظـلِّ القصور العاليه

وكان يتَّهم بالزندقة وأن هذه الألحان يستمدها منها على نحو ما استمدها قبله صالح بن عبد القُدُّوس . وكان وراءه ووراء صالح كثيرون زهدوا زهداً إسلامياًّ خالصاً، ومن ثَمَّ لم يتَّهموا فى زهدهم، لأنهم صدروا فيه عن عقيدة صحيحة مثل أبى محمد اليزيدى ، وله أشعار كثيرة فى الموعظة والحكمة،[٢] من مثل قوله[٣] :

إذا نكباتُ الدهر لم تعظِ الفتى   وأفْزع منها لم تعظه عـواذله
ومن لم يؤدبْـهُ أبـوه وأمُّه   تؤدبْه روعاتُ الرَّدَى وزلازله
فدَعْ عنك ما لا تستطيع ولا تُطِعْ   هواك ولا يغلبْ بحقك باطـله

وممن كانوا يكثرون من أشعار الزهد محمود الوراق ، وأكثر أشعاره أمثال وحكم ومواعظ وأدب[٤] على شاكلة قوله[٥] :

بكيتَ لقرب الأجـل   وبُعْد فـوات الأملْ
ووافـد شيبٍ طَـرا   بعقْب شبابٍ رحَلْ
شبابٌ كأن لمْ يكـن   وشيبٌ كأن لمْ يـزل

(١) الديوان ص ٣٠٤ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧٥ .
(٣) معجم الأدباء لياقوت (طبعة مصر) ٣٢/٢٠ .
(٤) ابن المعتز ص ٣٦٨ .
(٥) انظر فى هذه القطعة وتاليتها البيان والتبيين ١٩٨/٣ وقارن بزهر الآداب ٨٩/١ وعيون الأخبار ٣٢٦/٢

obeikandi.com

طــواك بَشيرُ البقـــاءِ وحـــلَّ بشير الأجَلْ

وقولـــه :

رأيت صلاحَ المرءِ يُصلح أهله ويُعْديهمُ داءُ الفساد إذا فسدْ
يعظَّم فى الدنيا بفضل صلاحِه ويُحفَظ بعدالموت فى الأهل والولد

ومعنى هذا كله أن ألحان الزهد لم تكن تقل عن ألحان المجون إن لم تزد عليها ، وغاية ما فى الأمر أن الألحان الأخيرة هى التى كانت تذيع على ألسنة الجوارى والمغنين ، وقد نشروها فى كل مكان .

٢

العلاقات اللغوية

إذا رجعنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الكوفة والبصرة أهم مِصْرين عربيين تصطدم فيهما اللغة العربية باللغات الأجنبية ، فقد كان سكانهما أخلاطاً من العرب والموالى فرساً وغير فرس . وحقاً كان هؤلاء الموالى يتعربون ، ولكنهم كانوا يجدون عناء شديداً من نظام الإعراب والتصريف فى العربية ، ولعل ذلك ما جعل هاتين المدينتين تبادران إلى وضع قواعدهما ، حتى لا يضل الموالى فى شعابهما الوعثة . ولم يكن هذا كل ما عانوه ، فقد كانوا يعانون أيضاً من لُكْناتهم وما يضطرون إليه من تكيف عضوى لمخارج الحروف ينجحون فيه أحياناً ، وأحياناً يفشلون ، فكان من الصعب عليهم مثلا أن ينطقوا بحروف الإطباق التى لا يعرفونها فى لغاتهم أو ينطقوا بالعين أو بالحاء ، وكان ذلك يصيب ألسنتهم بضروب مختلفة من اللثغات . وكان ينزلق إلى العربية على ألسنتهم كثير من الألفاظ الدخيلة التى أخذت تعرَّب ، تارة عن النبطية التى كان يتحدث بها سكان السواد فى العراق وتارة عن الفارسية التى كانت منتشرة بين سكان الكوفة والبصرة ، ويعرض علينا الجاحظ فى بيانه مدى تأثيرهما فى عربية البلدتين

ولغتهما اليومية[١] ، ويقول إن هذا التأثير نفذ إلى سكان المدينة فى الحجاز[٢] ونحن لا ننسى الأجيال العربية الأخيرة فى عصر بنى أمية ، فقد كان كثير منهم من أبناء الجوارى الأجنبيات ، وكانوا يتأثرون بأمهاتهم فى نطقهم لبعض الحروف[٣] وأيضاً فإنه بمضى الزمن أخذ كثير من العرب ينشأ فى المدن ، منبتّ الصلة بالبادية ، فضعفت السلائق اللغوية وأخذ يظهر اللحن بين فصحائهم ، بل إننا نجد بعض من نشئوا فى البادية يلْحنون مع ما عُرفوا به من فصاحة مثل الحجاج[٤] ، ولعل ذلك ما جعل خلفاء بنى أمية يحرصون على تأديب أبنائهم ، حتى لا يلحنوا فى خطابتهم[٥] .

وإذا أخذنا ننظر فى الشعراء الذين اشتهروا فى البصرة والكوفة لعهد بنى أمية وجدنا كل هذه الظواهر التى قدمناها بارزة فى أخبارهم ، فهذا يزيد بن مفرِّغ الذى عاصر زياد بن أبيه وابنه عبيد الله يحشو شعره بالألفاظ الفارسية[٦] ، وكان ينسب نفسه فى حمير ، غير أننا نظن ظنًّا أنه كان فارسيًّا ، وظهر من بعده شاعر فارسى لاشك فى فارسيته هو زياد الأعجم ،كان جزل الشعر فصيح الألفاظ[٧] ، ومع ذلك كان يجد صعوبة فى تكييف مخارج الحروف التى تخالف حروف لغته ، فكان يبدل العين همزة والحاء هاء ويجعل السين شيناً والطاء تاء[٨] ويُنشد قوله فى المهلب بن أبى صُفْرة أو ابنه يزيد[٩] :

فتى زاده السلطانُ فى الودِّ رفعةً ... إذا غيَّر السلطانُ كلَّ خليلِ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ١/١٨ وما بعدها .

(٣) انظر البيان والتبيين ١/٧٢، ٢/٢١٠ وما بعدها حيث يروى أن عبيد الله بن زياد ابن أبيه كان يبدل الحاء هاء والقاف كافاً ، ويعلل لذلك بأنه نشأ فى حجر بعض العجم .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف ص ١٣ والبيان والتبيين ٢/٢١٨ .

(٥) عيون الأخبار ٢/١٥٨ ، ١٦٧ وانظر البيان والتبيين وما يرويه من لحن الوليد ابن عبد الملك ٢/٢٠٤ وما بعدها .

(٦) البيان والتبيين ١/١٤٣ .

(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٩ .

(٨) أغانى ١٤/٩٩ والبيان والتبيين ١/٧١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .

(٩) فى الحيوان ٧/١٥١ أن البيت من قصيدة فى يزيد وفى الكامل ص ٣٦٦ أنه فى المهلب أبيه .

فيقول : « زاده الشُّلتان »[١] . ولما تردد منه ذلك على سَمْع المهلب أهدى إليه غلاماً فصيحاً يكفيه مئونة إنشاده شعره .

وهذا فيما يختص بالموالى ، أما العرب فإننا نلتقى فى أواخر العصر الأموى بشاعرين عربيين حَضريين ، لم ينشآ فى البادية ، وهما الطِّرِمَّاح والكُمَيْت . أما الطرماح فيروون أنه كان يكتب ألفاظ النبط الآراميين ويدخلها فى شعره[٢] ، وكان معلماً يؤدب الصبيان فتعلق بأن يقدم لهم شعراً مملوءًا بالألفاظ الغريبة ، ولكن أنىَّ له وهو ليس بدوياً ؟ لقد لجأ إلى طريقة سهلة : أن يسأل البدو ومن نشئوا فى البادية عن بعض الألفاظ الآبدة ويسلكها فى نظمه[٣] ، وكان يوفَّق أحياناً فى استخدامها وأحياناً لا يوفق ، ومن أجل ذلك رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره[٤] . ولم يكن الكميت يَشْرك الطرماح فى الظاهرة الأولى ظاهرة استعارة الألفاظ النبطية فى شعره ، ولكنه كان يشركه فى الظاهرة الثانية ، إذ كان يرجع إلى رُؤْبة الراجز البدوى ، فيسأله عن الغريب من الكلم فيخبره به ويكتبه ، ثم ينظمه فى شعره[٥] ، وكذلك كان يرجع إلى جَدَّتين له أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وشئونها ، وينقل وصفهما إلى أشعاره[٦] . وبذلك كان مثلَ صاحبه لم يتغذَّ بلبان البادية مباشرة ، فأخطأته الفطرة اللغوية فى كثير من ألفاظه وأوصافه ، وصوَّر ذلك ذو الرمة تصويراً طريفاً حين أنشده بعض قصائده وسأله رأيه ، فقال له : « إنك لتقول قولا ما يقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واعترف له الكميت بأن مرجع ذلك أنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ،

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٧١ .
(٢) الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/ ٣٦ والموشح ٢٠٩ .
(٤) الموشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٥) الأغانى ١٢/ ٣٦ ، والموشح ١٩٢ .
(٦) الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/ ١٢٠ .

وإنما يصف شيئاً وُصِف له[١] . وكذلك كان شأنه فى استخدامه للغريب ، ومن ثَمَّ رفض اللغويون الاستشهاد بأقواله وأشعاره[٢].

ومعنى ما قدمنا أن عصر بنى أمية يمدنا بأمثلة فردية لشعراء عاشوا فى البصرة والكوفة وأخذت العربية على ألسنتهم تتأثر باللغات الأجنبية ، وكان يتسع هذا التأثر عند الشعراء الموالى بسبب ما كانوا يرتضخون من لُكنات لغاتهم وما كانوا يستعيرونه أحياناً من ألفاظ تلك اللغات . وكان بعض الشعراء من العرب مثل الطرماح لا يرى بأساً فى أن يعرِّب بعض ألفاظ النبط الآراميين أو بعض الألفاظ الفارسية ، وأخذ هو وغيره من العرب المتحضرين يبتعدون عن السليقة العربية بحكم نشأتهم فى الحاضرة وبعدهم عن ينابيع اللغة الحقيقية .

وندخل فى العصر العباسى ، فإذا الشعراء جميعاً يتحضرون على شاكلة الطرماح والكميت ، ولقد كانا هما وأضرابهما فى العصر الأموى شذوذاً بين جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة وأمثالهم ممن ملأوا العراق بأشعارهم ، صادرين فيها عن سليقة عربية سليمة وفطرة بدوية صحيحة . أما فى العصر العباسى فقد تبدل الحال ، إذ أصبحت الكثرة الكثيرة من الشعراء تنشأ فى المدن لا فى البادية كما كان الشأن فى زمن الأمويين ، وليس هذا فحسب فإن كفَّة الفرس رجحت على كفة العرب لا فى شئون الدولة والسياسة فقط بل أيضاً فى الشئون الأدبية والعقلية ، وبُنيت بغداد على حدود بلادهم وزخرت بسيولهم ، وأصبحنا فى عصر جديد ليس للعرب فيه من سلطان ولا سيادة إلا سيادة الأسرة الحاكمة ، أما بعد ذلك فكل شىء للفرس .

غير أن هذا الانقلاب العنيف فى الشئون السياسية لم يصب اللغة العربية بسوء ، فإن الفرس لم يحاولوا استخدام لغتهم فى شئون الدولة الرسمية وكان كثير منهم قد تعرَّب ، بل قد تمكَّن من العربية حتى اتخذها لسانه فى التعبير عن مشاعره وأفكاره ، وعدَّها مثله الأعلى فى البيان والبلاغة . وظلت الأجيال التالية تشعر هذا الشعور بقوة ، وكان من أهم ما دعمه أن العربية كانت لغة القرآن

---

(١) الأغانى ١٥/١٢٠ .

(٢) الموشح ١٩١، ١٩٢، ٢٠٨، ٢٠٩ .

الكريم ، فكان الخروج عليها يُعَدّ مروقا من الإسلام ومحاولة لنقضه ، وبذلك ظلت العربية شامخة فى هذا المحيط الأعجمى حتى بين الزنادقة وأنصار الشعوبية فإنهم لم يستطيعوا غَضّا منها ، بل ظلوا يتخذونها هم ومن حَسُنَ إسلامهم مَثَلَهم اللغوى والأدبىّ الرفيع .

وليس معنى هذا أن مالاحظناه فى العصر الأموى من دخول الكلمات الأجنبية إلى الشعر العربى انحسرتْ ظلاله ، أو أن ضعف السليقة اللغوية انتهت آفاته ، أو أن اللُّكنات الأجنبية انحازت لُثغاتها عن الألسنة ، فقد استمر ذلك كله بصورة أوسع من الصورة الأموية ، لسبب بسيط ، وهو أن أغلب الشعراء كانوا أجانب ، فكان فيهم النبطى مثل أبى العتاهية والسِّنْدى مثل هرون مولى الأزد وأبى عطاء . أما الفرس فلا نستطيع إحصاءهم ، وكان منهم بشار بن برد وأبان بن عبد الحميد وسلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة وأبو يعقوب الخُرَيْمى ومسلم بن الوليد وغيرهم كثير .

ولعل شيئاً لم يسترع الجاحظ فى عصره كما استرعته اللكنات وما كانت تسبّبه من لثغات ، وقد أفاض فى وصف هذه اللثغات أوائل كتابه البيان والتبيين ، فقال إنه كان هناك من يبدل الراء غينا واللام ياء والزاى والثاء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً والذال دالا والجيم زايا أو ذالا . ويقول إن ذلك كله مصدره أن يُدْخل الرجل بعض حروف العجم فى حروف العرب . ويقول إن واصل بن عطاء كان لا يستطيع أن ينطق الراء ، فأخلى كلامه منها . ويزعم أن من أصوات اللغات الأجنبية ما لا يستطيع الخط العربى تصويره كلهجة خوزستان ، ويقول : « قد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيَّراً فاخراً ومعناه شريفاً كريماً ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطىّ ، وكذلك إذا تكلم الخراسانىّ على هذه الصفة فإنك تعلم — مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه — أنه خراسانىّ ، وكذلك إن كان من كُتّاب الأهواز[1] » . ولا بد أن أشياء من ذلك كانت تؤثر فى لهجات بعض

---

(١) البيان والتبيين ٦٩/١ .

الشعراءِ على نحوما رُوِيَ ذلك عن أبى عطاء السِّنْدى، إذ كان لا يكاد يفصح لارتضاخه لكْنَةَ قومه من السند، حتى كان كلامه إذا نطق به لا يكاد يُفهَمُ وذلك أنه كان ينطق الحاء هاء والعين همزة والصاد سينا والجيم زايا ويرقّق الظاء حتى تشبه الزاى[١] مما اضطره إلى اتخاذ غلام ينشد شعره[٢] :

وأهمُّ من ذلك أنهم أدخلوا فى أشعارهم بعض ألفاظ من لغاتهم الأصلية ، وحقًّا لم يتسع هذا الصنيع . ولكنا نجد عندهم أمثلة كثيرة لكلمات نبطية وفارسية كانوا يدخلونها فى بعض ما ينظمون ، من ذلك قول إبراهيم الموصلى يصف وداعه لخمّار نبطى :

فقال : إِزْل بِشِين حين ودَّعنى ... وقَدْ لعَمْرُك زُلْنَا عنه بالشَّيْنِ

وإزل بشينَ كلمة سريانية معناها امض بسلام[٣]. ويقول إسحق الموصلى فى قصيدة له يذكر مجالس لهوه مع إسحق بن إبراهيم المصعبى، وقد فرقت بينهما الأيام :

فيا ليت شعرى هل أروحنَّ مرَّةً ... إليه فيلقانى كما كان يلقانى
وهل أسمعنْ ذاك المزاح الذى به ... إذا جئته سلَّيْتُ همى وأحزانى
إذا قال لى : «يامَرْدَ مَىْ خُرْ» وكرَّها ... علىَّ وكنَّانى مُزاحا بصَفْوان

و « مردمى خر » كلمة فارسية تفسيرها : يا رجل اشرب النبيذ[٤]. ويقول والبة بن الحُباب[٥] :

قد قابلتْنا الكئوسُ ... ودابرتْنا النحوسُ
واليومُ هُرْمُزْدْ روزٍ ... قد عظَّمتْه المجوس

وهرمزد تعريب لأهورامزد إله النور عند الفرس ، وروز معناها بالفارسية يوم ، يقول إن اليوم يوم هذا الإله وعيده ، فلنطرب ونشرب . ولعل شاعراً لم يُكثر فى شعره من الألفاظ الفارسية كما أكثر أبو نواس، وخاصة حين يتعابث مع

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/ ٨٠ ، ٨٤ والشعر والشعراء ص ٤٨٢ .
(٢) أغانى ١٦/ ٧٩ ، ٨٣ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/ ١٧٦ .
(٤) أغانى ٥/ ٣٣٧ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٨٨ .

بعض الغلمان من المجوس، فيقسم عليه بآلهته وكهنة النار وبكل ما يقدّس من كواكب وبما يتلو من كتب زرادشت ، وفى رواية حمزة الأصفهانى لديوانه كثير من ذلك مثل قوله :

حمانى وَصْلَ أبناء القسوسِ — نجيبُ الفُرْسِ بَهْروزُ المجوسى
من المتزمزمين لدى التغذّى — يعذِّب مهجتى بين النفوسِ
فقلت ونحن فى وجَلٍ شديد — رضينا من وصالك بالخسيس
بإسْفِهْرٍ وناهيدٍ وتيرٍ — وحقّ الماهِ والمهرِ الرئيس
وحُرْمة بَرْسمِ التقديس مما — يُزَمْزِمُهُ هرابِذُ أسْطُنوسِ
بما تَتْلُون فى البِستاق رمزاً — كتاب زردُشْتٍ داعى المجوس
لما كلّمتنى ورددتَ نفسى — فإنى من جفائك فى رَسِيس

والمتزمزمون : أصحاب الزمزمة ، وهى الأدعية التى يتلوها المجوس على الطعام والشراب ، وإسفهر : الفلك بالفارسية ، وناهيد : الزهرة ، وتير : عطارد ، وماه : القمر ، والمهر : الشمس ، وبرسم : أعواد يتلون عليها سوراً من كتبهم ويقدسونها ، والهرابذ : كهنتهم ، وأسطنوس : معبد نار من معابدهم . والبستاق هو كتاب زردشت أو زرادشت معرب عن اسمه الفارسى أفستا . ومن ذلك قوله :

يا غاسل الطَّرْجهارِ — للخندريس العُقارِ
يا نرجسى وبَهارى — بدِهْ مَرَايَكْ بارى

والطرجهار : قدح شراب ، ومعنى الشطر الأخير : أعطنى مرة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الفارسية كانت منتشرة فى أحاديث اللغة اليومية ، وكان بين العرب كثيرون يتقنونها مثل العتّابى التغلبى ، وكان منهم من يُدخل بعض ألفاظها فى شعره على جهة التظرف ، يقول الجاحظ : « وقد يتملحّ الأعرابى بأن يُدخل فى شعره شيئاً من كلام الفارسية كقول العُمَانى للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

من يَلْقَه من بطلٍ مُسْرَنْدِ   فى زغفةٍ محكمةٍ بالسَّرْدِ (١)
تجول بين رأسه والكَرْدِ

والكرد : العنق بالفارسية . ومنها يقول أيضاً :

لما هوى بين غياض الأسْدِ   وصار فى كف الهِزَبْر الوَرْدِ (٢)
آلى يذوق الدهر آب سَرْدِ »

وآب سرد : الماء البارد بالفارسية . يقول الجاحظ ومثل هذا موجود فى شعر أبى العُذافر الكندى وغيره . . . وأسود بن أبى كريمة ، ويسوق له قوله :

لَـزِم الغُرَّامُ ثوبى   بُكْرَةً فى يوم سَبْتِ
فتمـايلـتُ عليهـم   مثـل زنجى بمَسْتِ
قد حَسَا الدَّاذِىَّ صِرْفا   أو عقارا بايخَسْتِ (٣)

والمست : السكر وإدمان الشراب ، والداذى : ضرب من الشراب ، والعقار : الخمر ، وبايخست : موطوءة بالأقدام . وتستمر المقطوعة على هذا النحو تختلط فيها الألفاظ العربية بالفارسية .

ومن غير شك كان دخول هذه الكلمات الأعجمية فى الشعر العباسى أوسع منه فى الشعر الأموى ، غير أن ذلك ظل فى حدود ضيقة ، وظل الشعراء يصنعونه على سبيل التظرف والتملح . وإذا كنا لاحظنا قبلا أن الكميت والطرماح نقصتهما السليقة اللغوية فمن المحقق أن جمهور الشعراء فى هذا العصر كانت تنقصه تلك السليقة مما هَيَّأ لظهور اللحن والخروج أحياناً على القياس الصرفى . وكان علماء اللغة لهم بالمرصاد ، فكلما انحرفوا دلُّوهم على انحرافهم ، ويُفيض كتاب الموشح للمرزبانى فى مآخذ هؤلاء العلماء عليهم ، وكانوا يرهبونهم رهبة شديدة ، حتى كان فريق منهم يعرض عليهم أشعاره قبل إذاعتها (٤) . وكان

---

(١) مسرند : يظفر بعدوه ويعلو عليه ، زغفة : درع سابغة ، السرد : تَسْمِر الزرد .
(٢) الهزبر : الأسد ، والورد : القوى الجرىء
(٣) البيان والتبيين ١/١٤١ وما بعدها .
(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٨١ ، ٨٢ وانظر (طبعة الساسى) ١٣/٢٢ و ١٧/١٦ .

فريق آخر يعتدُّ بسلامة ذوقه ، ويحمل عليهم ويهجوهم هجاء مرًّا[١].

والحق أن هؤلاء العلماء كانوا حُرَّاسا أمناء على العربية ، وضعوا قواعدها ودقائقها ، وجمعوا شعرها القديم ، واتخذوه مثلا أعلى للفصاحة والبيان ، وظلوا يذودون عنها ذياداً قويًّا متعصبين للجاهليين تعصباً شديداً ، فهم الشعراء حقًّا وغيرهم عالة عليهم ، بل لقد أهدروا شاعرية معاصريهم ولم يجعلوا لشعرهم حُرْمة ولا فضلا ، إن قالوا حسناً فقد سُبقوا إليه وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم [٢] ، ومنعوا الاحتجاج بشعرهم فهم لا يحتجون فى مسائلهم النحوية واللغوية إلا بعرب البادية . وارجعْ إلى كتاب سيبويه ، عمدة النحو والنحاة ، فستجده دائماً ينقل عن فصحاء العرب ومن تُرْضَى عربيتهم ولا يسوق شاهداً لشاعر محدث . وقد ظلوا يرحلون إليهم ، ويأخذون عنهم شفاها شواهدهم وأمثلتهم ، وفى الوقت نفسه أخذ كثير من عرب البادية يرحلون إلى الكوفة والبصرة وبغداد ليعرضوا تجارتهم اللغوية التى كان يروِّجها هؤلاء العلماء ، كما كان يروِّجها الخلفاء وكبار رجال الدولة .

وبذلك ظلت النماذج البدوية حية فى تلك الحقب التى تطور فيها الشعر فى مدن العراق بتأثير العلاقات الاجتماعية والحضارية النامية ، فقد نصب اللغويون تلك النماذج مَثَلاً أعلى للشعر الفصيح ، وروَّجوا لها فى البلاط ومجالس الوزراء . وبذلك أصبح هناك ضربان واضحان من الشعر : ضرب بدوى يتمسك بالتقاليد القديمة ، وضرب حضارى ينفكُّ قليلا أو كثيراً عن تلك التقاليد حتى يساير العصر .

وأخذ أصحاب الضرب الأول يُكثرون فى شعرهم من الغريب ، حتى يجد فيه اللغويون ما يسدُّ حاجتهم فى البحث والدراسة من الشواهد والأمثال ، وكانوا يؤلفونه غالباً من الرجز ، على نحو ما هو معروف عن أبى نُخَيْلة والعُمانى ورُؤْبة وابنه عُقْبة . وكانوا يُدِلُّون بنماذجهم تلك على شعراء المدن ، فبعثوا فيهم

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢١٠ (٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٠٩ . وديوان أبى نواس ١٧٥ — ١٧٦ .

نزعة إلى تقليدهم فى ذلك الميدان حتى يثبتوا لهم وللغويين أنهم يتفوقون عليهم ، حتى فى تلك الصناعة البدوية المسرفة فى البداوة . روى صاحب الأغانى أن بشاراً« دخل على عُقْبة بن سَلْم (والى البصرة) فأنشده بعض مدائحه فيه ، وعنده عقبة بن رُؤبة ينشده رجزاً يمدحه به ، فسمعه بشار ، وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ . فأقبل على بشار ، فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال له بشار : ألى يقال هذا ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (يقصد العَجَّاج) فقال له عقبة : أنا والله وأبى فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، والله إنى لخليق أن أسدَّه عليهم ، فقال بشار : ارحمْهم رحمك الله ، فقال عقبة: أتستخِفُّ بى يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر؟ فقال له بشار : فأنت إذن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وَطهَّرهم تطهيراً . ثم خرج من عند عقبة (بن سلم) مُغْضَباً ، فلما كان من غَدٍ غدَا على عقبة ، وعنده عقبة بن رؤبة ، فأنشده أرجوزته التى يمدحه فيها :

يا طللَ الحىِّ بـذات الصَّمْدِ ... بالله خَبِّرْ كيف كنت بعدى »

ومضى يَرْجُز ويتكلف للغريب يمزجه بشىء من الحضارة ودقة الحس والفكر وجمال الصياغة. فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته وانكسر عقبة بن رؤبة انكساراً شديداً (١) ، وليس بشار وحده الذى أثبت أنه يستطيع التفوق على شعراء البادية فى أرجازهم المملوءة بالغريب ، فقد تبعه أبو نواس يحاول أن يهزمهم هزيمة ساحقة فى هذا الميدان، وكان أبو نُخَيلة قد سبقه إلى صنع أراجيز كثيرة فى الطَّرد والقنص (٢) ، يصف فيها الصيد والكلاب والوحش وحيوان الصحراء على طريقة القدماء، فصنع على مثال طردياته طرديات جديدة أظهر فيها براعة وتفوقاً منقطع النظير ، حتى ليقول الجاحظ فى تقديمه لطائفة منها : « وأنا كتبت لك رَجز أبى نواس فى هذا الباب لأنه كان عالما راوية . . وصفاتُ الكلاب مستقصاة فى أراجيزه ، هذا مع

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٧٤/٣ وما بعدها .
وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٥
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٦٦ .

جودة الطبع وجودة السَّبْك والحذق بالصنعة ، وإن تأملتَ شعره فضَّلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبيةُ أو ترى أن أهل البدو أبدًا أشعر وأن المولَّدين لا يقاربونهم فى شىء ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا [١] » .

وعلى هذا النحو زحَم شعراءُ البصرة والكوفة وبغداد شعراءَ البادية فى نماذجهم من الأراجيز المحشوة بالألفاظ الغريبة وأثبتوا أنهم يبزونهم ، حتى فى تلك النماذج الخاصة . ولعل فى هذا ما يدل — من بعض الوجوه — على مدى ما كان يأخذ به الشاعر الحضرى فى تلك الأزمان نفسه من التثقف ثقافة عميقة بالشعر العربى الموروث واللغة العربية الصحيحة ، يأخذها عن أهلها بالمَرْبَى فيهم ، والرحلة إلى بواديهم ، فهم يروون أن بشارا كان يقول : « من أين يأتينى الخطأ ، وُلدت ها هنا (فى البصرة) ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبْديت (دخلت البادية) إلى أن أدركتُ ، فمن أين يأتينى الخطأ [٢] » أما أبو نواس فقد خرج إلى البادية وأقام فيها حولا كاملا ليتثقف باللغة من منابعها الحقيقية [٣] . ويقول الجاحظ عنه : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبى نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه » [٤] ويقولون إنه « كان يحفظ دواوين ستين امرأة من العرب فضلا عن الرجال [٥] » وإنه حفظ سبعمائة أرجوزة غير ما حفظه من قصائد الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وأوائل المحدثين [٦] ، وقال أبو عمرو الشيبانى : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم القول [٧] »

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على مبلغ ما كان يأخذ به بعض الشعراء

---

(١) الحيوان ٢/٢٧ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٤٩ وما بعدها .
(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور (طبع مصر) ص ١٢ .
(٤) أخبار أبى نواس ص ٦ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٤ .
(٦) نفس المصدر ص ٢٠١ .
(٧) نفس المصدر ص ٢٠٢ .

الحضريين العباسيين أنفسهم من التثقف باللغة والشعر القديم، حتى استحالت إليهم السليقة العربية ووقفوا على طريقة القوم فى التعبير والصياغة وقوفاً دقيقاً. روَى صاحب الأغانى أن بشارا أنشد خلَفاً الأحمر قصيدته :

بَكِّرا صاحبيَّ قبــل الهَجِيرِ إن ذاك النجاحَ فى التبْكيرِ

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان إن ذاك النجاح فى التبكير (بكِّرا فالنجاح فى التبكير) كان أحسن ، فقال له بشار : بنَيْتُها أعرابيَّة وحشيَّة فقلت : إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : (بكرا فالنجاح فى التبكير) كان هذا من كلام المولَّدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبَّل بين عينيه [1] »

ولكن هل معنى ذلك حقاً أن المولدين لم يتطوروا بأسلوبهم ؟ الحق أنهم تطوروا به تطوراً واسعاً ، حتى أصبح هناك فى وضوح أسلوبان : أسلوب للقدماء ، وأسلوب للمولَّدين العباسيين ، ولسنا نقصد أن هؤلاء المولدين كان يجرى على ألسنتهم شىء من اللحن فى التصريف أو فى الإعراب مما سجَّله المرزبانى فى الموشح نقلا عن علماء اللغة من معاصريهم[2] ومما جعل السيد الحميرى يقول عن شعره [3] :

أحوكُ ولا أقْوِى ولست بلاحنٍ وكم قائلٍ للشعر يُقوِى ويَلْحَنُ

وأيضاً لسنا نقصد ما كان يجرى على ألسنتهم من تملح وتظرف بحشد بعض الألفاظ الفارسية فى أشعارهم، وخاصة عند شعراء الجيل العباسى الثانى من مثل أبى نواس ، وإنما نقصد أنهم على الرغم من تقيدهم بكثير من تقاليد القدماء ولا سيما فى شعر المديح الرسمى وصناعة الأراجيز استطاعوا أن ينفذوا إلى لغة شفافة مبسَّطة تقف بين الإغراب والابتذال ، فهى لا ترتفع إلى شعر أمثال رُؤْبة وابنه عُقْبة وأبى نُخَيلة ، وهى لا تسقط إلى كلام العامة ، يدعمها ذوق سليم يعرف كيف يختار من العبارات أجملها صياغة وسبكًا ، وكيف ينوِّع فى معانيه ، فلا يقف

(١) أغانى ٣/١٩٠ .

(٢) انظر على سبيل المثال ما كتبه عن أبى نواس .

(٣) الموشح ص ١٤ .

بها عند المعانى الموروثة بل يضيف معانى جديدة ، وفى الوقت نفسه يولّد من المعانى والصور القديمة ما يروع . وبذلك استقام هذا الأسلوب المولد الجديد الذى يأخذ من القديم ، ويعرض ما يأخذ عرضاً خلاّباً ، ولا ينسى حقوق عصره ولا ما بسط له من الفكر والخيال ، وأيضاً فإنه لا ينسى حقوق هذا العصر فى البعد عن الكلام الوحشى الغريب والكلام السوقى المبتذل . فهو أسلوب مرن ، فيه سلاسة وسهولة ووضوح ، وفيه رشاقة وعذوبة ، أسلوب لا يتوعر ولا يسلم إلى تعقيد يفسده ويهجنه ، معانيه ظاهرة مكشوفة وألفاظه لا تلطف عن العامة ولا تجفو عن الخاصة ، مع أناقة التعبير ودقة الحس والذوق . وأخذ هذا الأسلوب المولّد الجديد يفرض سلطانه على الشعر والشعراء ، ولم يستطع اللغويون أن يقفوا عائقاً دون هذا السلطان ، فإنه على الرغم من معارضتهم له ذاع وانتشر ، ولا نصل إلى القرن الثالث حتى يصبح المثلَ الرفيعَ الذى يحتذيه كل الشعراء .

٣

العلاقات الثقافية

رأينا فى غير هذا الموضع أن العرب أخذوا منذ الفتوح الإسلامية يحاولون التعرف على ثقافات الأجانب ومعارفهم ، إذ كانوا ناشرين للدين الإسلامى واصطدموا بيهود ونصارى ومجوس ودهرية يناقشونهم ويناظرونهم فى مسائل الدين ، ورأوا عندهم من أساليب النظر والاستدلال ما دفعهم إلى معرفة تلك الأساليب وما كانت تتأثر به من آراء فلسفية . وأيضاً فإن الموالى أقبلوا على الإسلام ، وكانوا من أجناس مختلفة ، منهم الفارس والهندى والشامى والمصرى ، والعراق ، وأخذوا ينشرون بين العرب ما عرفوا فى لغاتهم الأصلية من ثقافات ومن معارف ونزعات . وكانت هناك مدارس ودوائر علمية فى جُنْدَيْسابور وفى الرُّهاونَصيبين وحَرَّان وفى قِنسرين وأنطاكية وفى الإسكندرية ، وتسرب كثير مما كان يدور فى تلك المدارس إلى الأديرة .

فلما وضع العرب أيديهم على تلك البيئات كلها أخذ كثير مما فيها من ثقافة يتحول إليهم بحكم ما كان يقتضيه دفاعهم عن دينهم وبحكم ما أصاب حياتهم من تطور ، فقد أصبحوا أصحاب دولة متحضرة ، تحتاج إلى كثير من العلوم التطبيقية النفعية ، وأخذت الأمم المجاورة لهم تَدْخل فى دينهم وتدخل معها معارفها وكل ما ورثته من الثقافة الهيلينية التى انتشرت فى الشرق منذ فتوح الإسكندر ، وكانت مزيجاً من فلسفة اليونان ومن ديانات الشرق وحكمته ، ولا نصل إلى العصر العباسى ، حتى تنظَّم الترجمة ، ويُقْبل السريان على نَقْل كل ما شاع بينهم وفى مدارسهم بالعراق وجنديسابور من معرفة وعلم وفلسفة ، كما يقبل الفرس والهنود أيضاً على نقل كثير من تراثهم .

وعُنى المنصور بهذه الحركة من الترجمة ، فجلب من جُنْديسابور آلَ بختيشوع الأطباء المشهورين ، فشاركوا توًّا فى الترجمة ، ووفد عليه من الهند « منكه » وكان قيماً بالحساب المعروف « بالسند هند » فى حركات الفلك والنجوم ، فأمره بترجمته ، وشاركه فى هذه الترجمة إبراهيم الفزارى يعاونه جماعة من العلماء . وعهد المنصور أيضاً إلى أبى يحيى البطريق ترجمة أجزاء من كتب بقراط وجالينوس فى الطب . ونحن لا ننسى رأس هؤلاء المترجمين جميعاً ابن المقفع الذى ترجم عن الفارسية بعض الكتب التاريخية والسياسية والأدبية ، كما ترجم أجزاء من منطق أرسطو وكتاب كليلة ودمنة الذى يرجع إلى أصول هندية . وأيضاً فإنه ترجم كتاباً عن مزدك ، أحد دعاة الفرس الدينيين ، ويظهر أنه أدخل كثيراً من تعاليم المجوسية . ومما لا ريب فيه أن كتاب زرادشت المسمى أفستا تُرْجم فى أوائل هذا العصر كما ترجمتْ كتب مانى ، مما كان سبباً فى ارتفاع موجة الزندقة . وكان هناك فرس كثيرون خلفوا ابن المقفع على ترجمة التراث الفارسى من أهمهم آل نوبخت .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، فيُنشئُ خزانة الحكمة وإدارة للترجمة يقيم يوحنا بن ماسويه أميناً عليها ويرتب له كما يقول القفطى كُتَّاباً حاذقين يكتبون بين

يديه[١]، ومما تُرْجِم فى عصره كتاب المجسطى فى الجغرافيا لبطليموس الإسكندرى. ونشط البرامكة فى تشجيع هذه الحركة ، سواء عن لغتهم الفارسية أو عن اللغات الأخرى ، ويقال إن يحيى بن خالد جلب مجموعة من أطباء الهند وأمرهم بنقل بعض كتب قومهم فى الطب[٢] ، ودخل من ثقافة الهند كثير من الأفكار إلى محيط العربية ، من ذلك صحيفة فى البلاغة يحتفظ بها الجاحظ فى بيانه[٣]، وأيضاً فقد دخلت بعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمَنِيَّة،[٤] كما دخل كثير من حِكمهم ومن تأملاتهم الزاهدة المتصوفة ، مما كان له أثره فى الصوفية الإسلامية .

وكلما مضينا فى العصر وجدنا موجة هذه الترجمة تزداد حدة ، فقد شجع المأمون عليها تشجيعاً واسعاً وأرسل فى طلب الكتب من بلاد الروم ، وجعل خزانة الحكمة مجمعاً لطائفة من كبار المترجمين أمثال سهل بن هرون ومحمد بن موسى الخوارزمى وسلم ويحيى بن منصور وبنى شاكر : محمد وأحمد والحسن، وعهد بإدارة الترجمة إلى حنين بن إسحق ، ولم يلبث الكندى فيلسوف العرب الأول أن ظهر ثمرة لكل هذه الحركة المباركة .

ومن المؤكد أن المسألة كانت أوسع من تلك الأخبار التى تساق لنا عن الخلفاء واهتمامهم بالترجمة ، فقد كان هذا الاهتمام عامًّا بين أفراد المجتمعات فى البصرة والكوفة وبغداد ، بدليل أننا نجد العلوم الإسلامية توضع قواعدها وأصولها فى هذا العصر وضعاً يدلُّ على أن أصحابها كانوا يقفون على أساليب البحث عند اليونان وغيرهم . ويكفى أن نشير هنا إلى علم الكلام والموضوعات التى أثارها المتكلمون ، مما حكاه لنا الجاحظ فى كتابه الحيوان عن أبى الهُذَيل العلاَّف والنظَّام وأضرابهما ، فإننا نرى أمامنا عقولا كبيرة ، اطلعت اطلاعاً واسعاً على علوم الأوائل ، واستطاعت أن تنفذ منها إلى فكر عربى متوهج بالثقافات المنقولة

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى (طبع مطبعة السعادة) ص ٢٤٨ وما بعدها وانظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٤) أغانى ٣/١٤٧ .

ومسائلها المختلفة ، وحتى علم اللغة والنحو لم يخلُوَا من أثر هذه الثقافات وطرائقها ومناهجها فى النظر وبحث المشاكل ، وصلةُ النحو بالمنطق اليونانى مقررة ؛ وقد وضع الخليل معجماً للعربية بترتيب مخارج الحروف متأثراً بالهنود فى ترتيب حروف لغتهم ، وهيأتْه معرفته بعلم الموسيقى لوضع عروض الشعر العربى وأوزانه .

وطبيعى أن يكون لهذه العلاقات الثقافية الجديدة التى عملت عملا نافذاً فى عقلية العباسيين أثرها الواسع فى شعرائهم ، فإنهم لم يكونوا بعيدين عنها ، بل كانوا يتصلون بها اتصالا وثيقاً . وإذا كنا لاحظنا قَبْلاً صلتهم بالزندقة الفارسية فإن صلتهم بالمحتويات الأخرى للثقافات الأجنبية لم تكن تقل عن صلتهم بالزندقة ، ومر بنا أن ديوان صالح بن عبد القدُّوس كان يشتمل على ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، ونراهم يروون عن العَتَّابى التغلبى أنه كان يتقن الفارسية وأنه رحل إلى « مَرْو » ، فكتبَ كُتبَ العجم ، ولما سئل فى ذلك قال : « وهل المعانى إلا فى كتب العجم والبلاغة ، اللغة لنا ، والمعانى لهم »[١] . ومَنْ يرجع إلى ترجمته فى كتاب الأغانى يجد له ضرباً من الشعر القصير الذى يشبه الأمثال كقوله فى مديح عبد الله بن طاهر[٢] :

ودُّك يكفينيك فى حاجتى ورؤيتى كافيةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشت لى وإنما كفَّاك لى بيتُ مال

وقوله فى مديح جعفر بن يحى البرمكى[٣] :

ما زلتُ فى غمرات الموت مطَّرَحًا قد ضاق عنى فسيحُ الأرض من حيَلى
ولم تزل دائبًا تسعى بلُطْفك لى حتى اختلستَ حياتى من يدىْ أجَلى

وقولـه[٤] :

هَيْبةُ الإخوان قاطعةٌ لأخى الحاجات عن طَلَبهْ
فإذا ما هبتَ ذا أملٍ مات ما أمَّلْتَ من سَبَبهْ

---

(١) الجزء السادس من تاريخ بغداد لطيفور ص ١٥٧ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/ ١١٧
(٣) أغانى ١٣/ ١١٩ .
(٤) أغانى ١٣/ ١١٦ .

وأكبر الظن أن العتّابى كان يتأثر فى هذه القطع القصيرة معانى فارسية ، وكان يتأثر هذه المعانىَ أبناءُ الفرس أنفسهم ، فهم أصحابها ، وهى كنوز كانت ملقاة تحت أعينهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الهجاء القصير الذى شاع عند بشار بن برد وحماد عَجْرد وأضرابهما ، إنما نشأ من هذا التأثر بمعانى الفرس وأمثالهم ، وكان بشار خاصة يكثر من الأمثال والحكم فى شعره. ويَدْخُلُ فى هذا الجانب ما تسرب إلى الشعر من أخيلة فارسية ، كقول بعض الشعراء[١] :

لو لم تكن نِيَّةُ الجَوْزاء خِدْمَتَهُ ... لما رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَطِقِ

ويقال إن شاعراً قرأ قول كسرى فى وصف النرجس إنه : « ياقوت أصفر بين درٍّ أبيض على زمرد أخضر » فقال وزاد عليه :

وياقوتةٍ صفراء فى رأس دُرَّةٍ ... مركَّبةٍ فى قائمٍ من زَبَرْجَدِ
كأن بقايا الطَّلّ فى جَنَباتها ... بقيَّةُ دَمْعٍ فوق خَدٍّ مورَّدِ[٢]

وعلى نحو ما كانت العلاقات قائمة بين الشعراء والثقافة الفارسية كذلك كانت قائمة بينهم وبين الثقافة الهندية ، فقد كانوا يعرفون ما نُقل عنها فى الفلك وغير الفلك وقد تسرب إليهم كثير من آراء الهنود وأفكارهم وقصصهم كقصة بوذا الملك الذى هجر ملكه ، وساح فى الأرض عابداً لربِّه ، فقد اتخذ منه أبو العتاهية مثالا للرجل الفاضل فقال[٣] :

يا من تشرَّف بالدنيـا وزينتها ... ليس التشرُّفُ رَفْعَ الطين بالطينِ
إذا أردتَ شريف الناس كلهمِ ... فانظرْ إلى ملكٍ فى زىّ مسكينِ

ونُقل إليهم ما تزعمه الهند فى علم الطبائع من أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذياً ، وعرف ذلك أبو نواس ، فقال[٤] :

قل لزهيرٍ إذا حَدَا وشَدَا ... أقْلِلْ وأكثرْ فأنت مهذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حتَّـ ... ـى صرتَ عنـدى كأنك النار

---

(١) معاهد التنصيص ٢/١٥ .
(٢) زهر الآداب ٢/٢٠٩ وانظر ٢/٢١١
(٣) ديوان أبى العتاهية ص ٢٧٤ .
(٤) الشعر والشعراء ص ٥٠٦ وانظر عيون الأخبار ٢/٧ .

لا يعجب السامعون من صفتى — كذلك الثلج باردٌ حـــار

ومما تأثر فيه ببعض آراء الهند قوله :

تـُخُيِّرَتْ والنجومُ وُقـْفٌ — لم يتمكَّنْ بها المـــدارُ

وهو يشير بذلك إلى بعض ما نُقل عنهم من أن « الخمر تخيّرت حين خلق الله الفلك، وأصحابُ الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة فى برج، ثم سَيَّرها من هناك . وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول إنه فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها فهلك الخلق بالطوفان، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارجاً عن الحوت[1] ». وربما كان أهم ما أثرت به الهند فى المجال الشعرى العام ما انتشر فى كتاب كليلة ودمنة من حكم وقد نـَقـَل هذا الكتابَ إلى العربية ابنُ المقفع ثم نظمه أبان بن عبد الحميد للبرامكة شعراً، ويحتفظ كتابُ الأوراق للصولى بقطع طويلة من هذا النظم الذى يستهله بقوله :

هـــذا كتابُ أدبٍ ومحـْنَه — وهـْو الذى يـُدْعى كليله دمْنه

فيـــه دلالاتٌ وفيه رُشـْدُ — وهو كتابٌ وضعته الهـِنـْدُ

فوصفـــوا آدابَ كل عـــالمِ — حـــكايةً عن ألـْسُنِ البهائمِ

وإذا تركنا الثقافتين الهندية والفارسية إلى الثقافة اليونانية وجدنا علاقتها بالشعر والشعراء تفوق علاقتى تلك الثقافتين . وحقـًّا أنهم لم يعرفوا شيئاً عن الشعر اليونانى ، إذ اقتصرت معرفتهم بالثقافة اليونانية على الفلسفة والمنطق ، ولكن هذه المعرفة أفادوا منها فوائد جُلَّى ، فقد دعم المنطق تفكيرهم ووسعت الفلسفة دوائره ، فانصبغ عقل الشعراء بأصباغ من العمق والدقة والتحليل وطرافة التقسيم والبعد فى الخيال والتجريد فيه . وكان المتكلمون أهمَّ من أذاع هذه الثقافة فى محيط الشعر والشعراء ، إذ كانوا يتأثرون بها تأثراً واسعاً فى جدالهم وأساليب استدلالهم ، وكبُّوا عليها يقرءونها ، وينقلون مصطلحاتها ، ويفسرون معانيها من مثل الطَّفْرة

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٠٤

والحركة والسكون والتولد والكمون والجوهر والعرَض والجوهر الفرد . وكان كثير من الشعراء يستمع إليهم ، بل لقد وُسِمَ غير شاعر بالكلام والاعتزال ، وأنه يستمد منهما فى موازنة الشيء بالشيء وفى الجدل والمغالطة ، كما يستمد منهما فى استنباط المعانى الخفية والأفكار الدقيقة . وقد بدأ بشار حياته متصلا بالمتكلمين وبالمعتزلة منهم خاصة ، إذ كان يصحب واصل بن عطاء[١] وما زال قريباً منه ، حتى أظهر ثَنَويته وزندقته ، ففسد ما بينهما ونادى واصل فى الناس أن يقتلوه ، ففرَّ عن البصرة ، وذهب يعلن أنه لا يؤمن بواصل ومذهبه فى القدر ، إنما يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة فى الحياة ، يقول :

طُبِعتُ على ما فىَّ غير مخيَّرٍ ... هوايَ ولو خُيِّرْتُ كنت المهذَّبا
أريد فلا أعْطَى وأعطى ولم أرد ... وقصَّر علمى أن أنال المغيَّبا
فأصْرَفُ عن قَصْدى وعلمى مقصِّرٌ ... وأمسى وما أعْقَبْتُ إلا التعجبا

وكان يكثر من الحجاج والجدال فى ذلك ويقول : ما أومن إلا بالحِسِّ وما عاينته[٢] . وتحول بهذا الجدال وما يطوى فيه من قدرة على الاستدلال إلى شعره ومعانيه ، فكان يكثر فيه من استنباط الأدلة وحشد البراهين على شاكلة قوله[٣] :

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعِنْ ... برأىِ نَصيحٍ أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً ... فإنَّ الخوافى قوةٌ للقوادم[٤]
وماخَيْرُ كفٍّ أمسكَ الغُلَّ أختها ... وما خير سيفٍ لم يؤيَّد بقائم[٥]

وقولــه[٦] :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً ... صديقَك لم تلق الذى لا تعاتبه

---

(١) انظر الأغانى ٣/١٥٢ .
(٢) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٣) أغانى ٣/١٥٧ .
(٤) القوادم : الريش فى أعلى الجناح ، والخوافى : الريش الصغير الذى يخفى حين يضم الطائر جناحيه .
(٥) الغل : الحديدة التى تجمع بين يد الأسير وعنقه ، وقائم السيف : مقبضه .
(٦) أغانى ٣/١٩٧ .

فعِشْ واحداً أوصِلْ أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مَـرَّةً ومجانبه[١]
إذا أنت لم تشرب مراراً على القَذَى ظمئتَ وأيُّ الناس تَصْفو مشاربه

وما نشك فى أن كثرة هذه الأدلة فى شعره جاءته من بيئة المتكلمين وما كانت تعتمد عليه فى جدالها من أقيسة المنطق والترتيب لمقدماتها الصحيحة واندفع يستنبط كثيراً من دقائق المعانى ولطائف الفكر كقوله فى بعض ممدوحيه[٢] :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو فِ ولكن يَلَذُّ طعم العطاءِ

فإنك تراه يفكر تفكيراً جديداً، إذ يجعل العطاء بدون غاية خارجة عن نفسه، وهى فكرة لم تكن تقع فى عقل الشاعر القديم، إنما تقع فى عقل الشاعر العباسى الجديد الذى لا يزال يغرق فى التفكير حتى يتصور الأشياء مجرَّدة عن غاياتها ، وإذا كان المتكلمون اشتهروا بمغالطاتهم أو بتأتِّيهم لتعليلاتهم أو كما يقول البلاغيون بحسن التعليل فإننا نجد من ذلك أصباغاً كثيرة فى شعر بشار كتعليله لآفته بقوله[٣] :

عَمِيتُ جنيناً والذكاءُ من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظن للعلم مَوْئلا

وقوله فى جارية سوداء[٤] :

وغـادةٍ سـوداءَ برَّاقـةٍ كالماء فى طيبٍ وفى لينِ
كأنهـا صِيغتْ لمن نالهـا من عنـبرٍ بالمسك معجون

وقوله فى بعض ممدوحيه — إن صَحَّ أنه له —[٥] :

لمستُ بكفى كفَّه أبتغى الغِنى ولم أدْرِ أن الجود من كفه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

وتكثر هذه التعليلات فى شعر بشار كما تكثر معها الموازنة والتقسيمات والبعد فى التأويل واستخراج المعانى ، على شاكلة قوله[٦] :

---

(١) مقارف : مرتكب .
(٢) أغانى ٣/١٨٩ .
(٣) أغانى ٣/١٤٢ .
(٤) أغانى ٣/١٩٣ .
(٥) أغانى ٣/١٥٠ .
(٦) البيان والتبيين ١/٤ .

وعِيٌّ الفَعال كَعيِّ المقالِ وفى الصمت عِيٌّ كعِيِّ الكَلِمْ

وأنت تراه لا يخصص العيّ بالكلام ، بل يجعله فى الفعال ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيقيم فى الصمت عِيّاً كعي الكلام ، فإذا العي على أقسام : عيّ الصمت وعي الفعال وعي المقال . وأكبر الظن أن هذا التقسيم الطريف هو الذى ألهم الجاحظ رسالته فى تفضيل الكلام على الصمت وخروجه عما ألفه الناس فى أمثالهم .

وإذا تركنا بشاراً وجيله إلى الجيل التالى الذى خلفه وجدنا أبا نواس الثائر على التقاليد والأوضاع خير من يمثله ، وكان كثير الاختلاف إلى مجالس المتكلمين ، ولاحظ الجاحظ فى بيانه أنه استعار كثيراً من ألفاظهم ومصطلحاتهم على وجه التظرف والتملح كقوله فى جنان[1] :

وذات خدٍّ مورَّدْ قوهيّةِ المتجرَّدْ[2]
تأمّلُ العينُ منها محاسناً ليس تنفَدْ
فبعضُها قد « تناهى » وبعضها « يتولَّد »
والحسنُ فى كل عضوٍ منها معادٌ مردَّدْ

وقوله :

يا عاقدَ القلب عنى هلّاَ تذكرت حلّا
تركتَ منّى قليلا من القليل أقلّا
يكاد لا يتجزّا أقل فى اللفظ من لا

ويُرْوَى أن النظّام سمع منه الأبيات الأخيرة فقال له : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ مذ دهرنا الأطول نخوض فيه ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت فيه فى بيت واحد[3] » . ولم يكن أبو نواس ينهج نهج المتكلمين فى ذكر مصطلحاتهم فحسب ، بل كان ينهج نهجهم أيضاً فى

(١) البيان والتبيين ١٤١/١ وانظر أخبار أبى نواس ص ١٣ حيث ساق ابن منظور له طائفة من معانى المتكلمين وألفاظهم .

(٢) قوهية : أراد بيضاء ، والقوهى : ضرب من الثياب البيضاء .

(٣) أخبار أبى نواس ص ١٣ .

توليد المعانى واستنباط غرائبها ، حتى قالوا : «ما زالت المعانى مكنوزة فى الأرض حتى جاء أبو نواس فاستخرجها [١] . ولم يكن يغرب فى معانيه إغراباً قريباً ، بل كان يبعد فى إغرابه ، حتى ليصوِّر الحسىَّ بالمعنوى على شاكلة قوله فى الخمر [٢] :

وقد خفيتْ من لطفها فكأنها ... بقايا يقينٍ كاد يذهبه الشكُّ

وقولـــه [٣] :

صَفَتْ وصفت زجاجتها عليها ... كمعنى دَقَّ فى ذهنٍ لطيفِ

وقولـــه [٤] :

فتمشَّتْ فى مفاصلهم ... كتمشّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

وقلما نجد بعد أبى نواس شاعراً ممتازاً إلا وهو يلزم المتكلمين والمعتزلة ، وقد عُدَّ أبو تمام منهم . وكان ابن الرومى ينزع منزعهم . ومعروف أن النظام من متقدميهم ، وقد نال شهرة مدوِّية على رأس المائتين بقدرته على الجدال وغوصه على المعانى الدقيقة ، ولم يكن متكلماً يحسن الكلام فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، وكان يستقى شعره من الكلام والجدل . على شاكلة قوله [٥] :

ما زلتُ آخذ روح الدَّنِّ فى لُطُفٍ ... وأستبيح دمًا من غـــير مذبوحِ
حتى انثنيتُ ولى روحان فى جسدى ... والزِّقُّ مطَّرَحًا جسمٌ بلا روحِ

وقولـــه [٦] :

توهمه طَـــرْفى فآلم خدَّهُ ... فكان مكان الوهم من نظرى أثْرُ
وصافحه قـــلبى فآلم كفَّه ... فمن صَفْح قلبى فى أنامله عَقْرُ [٧]
ومـــرَّ بقلـــبى خاطراً فجرحتهُ ... ولم أر خلْقًا قط يجرحه الفكر
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطُّفٍ ... يقال به سكرٌ وليس به سكر

---

(١) أخبار أبى نوس ص ٦٤
(٢) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ١٨٣ .
(٣) خزانة الأدب ص ١٨٤
(٤) الديوان ص ٣٢٤ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧٢
(٦) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٨٨
(٧) العقر : الجرح .

وعلى هذا النحو لم يكن المتكلمون يؤثِّرون فى الشعراء بما يَفْتُقُون من معانيهم الخاصة ، بل كانوا يرددون على أسماعهم مثل هذه الأبيات التى يبعدون فيها ويغربون ويأتون بالنادر المستطرف من المعانى والصور . ولا نشك فى أن الحسين ابن الضحاك كان يتأثر نزعتهم من الإغراق فى الوهم والتجريد حين قال فى بعض غزله(١) :

إنَّ مَنْ لا أرَى وليس يــرانى ... نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأمانى
بأبى مَنْ ضميرُه وضميرى ... أبدا بالمغيب يَنْتَجِيانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا ... ن إذا ما اختبرتَ يمتزجـــان
فإذا ما همَمْتُ بالأمر أوهَـ ... ـمَّ بشىءٍ بــدأته وبدانى
كان وَفْقاً ما كان منه ومنى ... فــكأنى حكيته وحكانى
خطراتُ الجفــونِ منا سواءٌ ... وسواءٌ تَحَرُّكُ الأبدان

وهذا غزل جديد، لا يقوم على الحِسِّ وإنما يقوم على الوهم والإغراق فى الخيال .

وليس هذا كل ما بعثه المتكلمون فى الشعر والشعراء من جديد بفضل ما أذاعوا من دقائق الفكر والفلسفة ، فإن جماعة منهم صَنَّفت قصائد فى مخالفيهم كقصيدة مَعْدان الأعمى الشُّمَيْطى التى صَنَّف فيها الرافضة والغالية من الشيعة(٢) . ويلمع هنا اسم بشر بن المعتمر ، إذ يقول المرتضى إن له أشعاراً كثيرة يحتج فيها على أهل المقالات(٣) ، وروى له الجاحظ فى حيوانه شعرا مزاوجاً فى فضل على بن أبى طالب وتقدُّمه هو وأهل بيته على الخوارج يمضى على هذا النحو(٤) :

ما كان فى أسلافهم أبو الحسنْ ... ولا ابن عبَّاسٍ ولا أهل السنَنْ
غُرٌّ مصابيح الدُّجَى مناجيبُ ... أولئك الأعلامُ لا الأعاربُ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٧/١٨٧ .
(٢) الحيوان ٢/٢٦٨ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .
(٤) الحيوان ٦/٤٥٥ .

وروى له أيضاً قصيدتين طويلتين فى أصناف الحيوان وعجائب صنع الله فى خلقه وما أودع هذا الخلق من حكمته[١] . ونجد الجاحظ يروى لكثيرين أشعاراً فى هذا الباب مثل الحكم بن عمرو البَهْرانىّ وقصيدته فى غرائب الخلق[٢]، ومثل هرون مولى الأزد وشعره فى الفيل[٣] ، وكان هنديًّا من أهل المولتان .

وبذلك أعدَّ المتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة من أمثال بشر — لشيوع الشعر التعليمى (Poésie Didactique) منذ أوائل العصر العباسى ، ويظهر أن الشعراء كانوا يؤثرون فيه قالب المزدوج الذى نظم فيه بشر بعض أشعاره، وقد نُظمت فيه مزدوجة طويلة فى الفلك لمحمد بن إبراهيم الفزارى ،ويقول ياقوت إنها « تدخل مع تفسيرها فى عشرة أجلاد ، أولها :

الحمـــدُ لله العـــلىِّ الأعظمِ ذى الفضل والمجد الكبير الأكرمِ
الواحـــد الفَرْد الجواد المُنْعمِ
الخـــالقِ السبعِ العُلَى طِباقا والشمسِ يجلو ضوءُها الإغساقا
والبدر يملا نورُه الآفاقا

وهى هكذا ثلاثة أقفال ،ثلاثة أقفال[٤]» . ومرَّ بنا أن أبان بن عبد الحميد صاغ للبرامكة كليلة ودمنة شعرًا ، واختار لشعره هذا القالب ، إلا أنه لم يجعله فى ثلاثة أقفال ، إنما جعله فى قفلين قفلين على نمط المزدوج عند بشر ، ويقول الجاحظ إن بشراً كان أبرع فى ذلك وأقدر من أبان ، وإنه لم يَرَ أحداً يبلغ قوته على المخمَّس والمزدوج[٥] . وعلى هذا الغرار نفسه نظم أبو العتاهية أرجوزته « ذات الأمثال » وقد بلغت أربعة آلاف بيت كلها أمثال وحكم على شاكلة قوله :

حَسْبُك مما تبتغيه القُوتُ ما أكثر القوتَ لمن يموتُ
لـــكل ما يؤذى وإن قَلَّ ألم ما أطول الليل على من لَمْ يَنَمْ
ما انتفـــع المـــرءُ بمثل عقلِه وخيرُ ذخرِ المـــرء حسنُ فعلِه

---

(١) الحيوان ٦/٢٨٣ وما بعدها .
(٢) الحيوان٦ /٨٠ .
(٣) الحيوان ٧/٧٥ ، ١١٥ .
(٤) معجم ياقوت(طبعة مصر) ١٧/١١٨
(٥) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .

إن الشباب والفـــراغ والجِـدَه مفسدةٌ للمـــرء أىّ مَفْسدَه [1]

وأكبر الظن أن فى ذلك كله ما يوضح أن العلاقة كانت وثيقة بين الشعر والثقافات الدخيلة ، فقد تحول إلى جوانب منها ينظمها كالفلك ، وأيضاً فإن الشعراء نظموا تاريخ الأمم الخالية[2] ، ولا نشك فى أن أرجوزة أبى العتاهية لم تكن أمثالها كلها من صُنْعه ، وأنه استقاها من أمثال الفرس والهند واليونان أو على الأقل استقى كثيراً من جوانبها . وكم تلقانا إشارات فى كتب الأدب لما كانوا ينظمون من معانى اليونان[3] وغيرهم[4] . ولا نبالغ إذا قلنا إن منهم من كان يحسن من التفلسف ما يحسنه من الشعر ، ولسنا نقصد النظام وأضرابه من المتكلمين ، وإنما نقصد الشعراء أنفسهم من مثل صالح بن عبد القُدُّوس وأبى العتاهية ، ومن لا يبلغ مبلغهما من التفلسف كان يأخذ بأطراف منه إن لم يكن مباشرة فعن طريق المتكلمين كما رأينا عند بشار وأبى نواس .

٤

ازدهار مذهب الصنعة

لعل فيما قدمنا من حديث عن الشعر العربى فى القرنين الثانى والثالث وعلاقاته الجديدة ما يوضح أن تأثيرات واسعة أخذت تؤثر فى صورته ، فقد كان أكثر من ينظمونه من الأجانب وخاصة من الفرس ، وكانوا متحضرين تحضراً أقبلوا فيه على كثير من فنون اللهو والمجون ، كما كانوا مثقفين ثقافة واسعة نوَّعت أفكارهم وخواطرهم ، وأجَّجَتْ عقولهم وأذهانهم ، فانطلقوا يعبرون بالشعر عما أصابوا من كنوز المعرفة ، ويصورون ما يجول فى نفوسهم من نزعات

---

(١) انظر فى هذه المزدوجة الأغانى ٤/ ٣٦ . والجدة : الغنى

(٢) الحيوان ٦/ ١٤٩ .

(٣) الأغانى ٤/ ٤٣ وما بعدها حيث روى أبو الفرج مرثية لأبى العتاهية استمدها من أقوال الفلاسفة حين حضر واتابوت الإسكندر المقدونى وقد هيء ليدفن . وانظر البيان والتبيين ١/ ٤٠٧ .

(٤) انظر على سبيل المثال عيون الأخبار ٣/ ٦ حيث يروى حكمة هندية نظمها العتابى . وراجع زهر الآداب ١/ ٩٠ حيث يذكر عن محمود الوراق أنه كان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين وحكم المتقدمين فيحلى بها نظامه ويزين بها كلامه.

obeikandl.com

وأحاسيس . فإذا بنا إزاء عصر جديد ، وهو عصر لاتنقطع فيه الصلة بين ماضى الشعر وحاضره ، فقد وضع الشاعر العباسى نُصْبَ عينيه نموذج الشعر القديم وحوَّل كل ما يتضمنه هذا النموذج من معان وصور إلى عصره ، وأضاف إليها حشوداً من معان وصور جديدة ، وألّف من ذلك كله نموذجه الحديث .

وتختلف صلة هذا النموذج بالنموذج القديم سعة وضيقاً . فهو فى المديح والشعر الرسمى أقرب إلى القديم منه فى شعر الغزل والخمر والمجون ، وبذلك يستمر فيه أو بعبارة أدق فى مدائحه الحديث عن الأطلال و وصف الصحراء وما يتصل بها من رحلة وصيد ، وحتى هو فى الموضوعات ذات الصبغة الجديدة كالخمريات يستمد مما قاله القدماء . ومعنى ذلك أن الشعراء كانوا يجددون ولكن مع ضرب من التوازن . فهم لا ينسون القديم ، بل هم يعكفون عليه محاولين أن يستنفدوا دِنانه ، وكأنه يشبه — عندهم — الخمر المعتقة التى كانوا يُشْغَفون بها .

ويخيَّل إلى الإنسان كأنما أحال الشاعر العباسى الشعر القديم إلى ما يشبه تلك الجُذاذات التى يجمعها العلماء حين يريدون أن يبحثوا موضوعاً و يستقصوه استقصاء ، ومن الحق أن استقصاءهم كان عميقاً ، فهو استقصاء فيه جِدّ وصرامة ، وفيه غير قليل من المصاعب والمتاعب ، فهم لا ينظمون الشعر إلا بعد أن يحفظوا آلاف القصائد ومئات الأراجيز وإلا بعد أن يستظهروا ذخائر الشعراء الجاهليين والإسلاميين . ومن غير شك يرجع الفضل فى ذلك إلى اللغويين الذين جمعوا لهم مادة الشعر القديم ووضعوها تحت أعينهم مفسَّرة مشروحة . وقد أشاعوا بينهم تلك العقيدة التى ثَبَّتَتْ فى الأذهان تفوُّق الشعر الجاهلى وأنه مثل أعلى خليق بالشاعر العباسى أن يجاريه . وتبعهم الشعراء يدرسون هذا الشعر ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يحاكوه ، وكأنما رأوا حيوية كامنة فى روحه تجعله خليقاً بالبقاء والمحاكاة ، وأثبتوا فى مهارة أنهم جديرون بالقيام على تراثه النفيس واستغلاله واستنفاد طاقاته .

وتوضح لنا كتب السرقات مدى هذا الاستنفاد والاستغلال ، وكلما مضينا فى العصر أضافت الأجيال إلى هذا التراث أعمال المحدثين ممن سبقوهم

وأشعارهم ، وأكبَّ الشعراء عليها بحثاً ودرساً وتعمقا واستقصاء، وبذلك اتصلت الأسباب وتوثقت بين قديم الشعر العربى وحديثه ، واحتفظ بكل مادته ومشخِّصاتها على مر العصور وتعاقب الدهور .

وليس معنى ذلك أن الشعر العربى لم يتطور فى العصر العباسى تطوراً واسعاً ، ولكن معناه أن الشعراء كانوا فى أثناء تطورهم به ينسقون بين سَدَى الماضى ولُحْمة الواقع ونغمات الغابر وألحان الحاضر . ونستطيع أن نستعرض فنون الشعر ، فنًّا فنًّا فسنراها جميعاً تتطور ، وإن كان التطور يختلف كثرة وقلة ، فهو فى المديح والشعر الرسمى محدود ، إذ نجد الشاعر يحافظ غالباً على التقاليد الفنية الموروثة ، ولكنه مع ذلك يلوِّن فى معانيه تلويناً واسعاً بفضل ثقافته وما أتاحت له من قدرة على توليد المعانى والغوص على الأفكار والأحاسيس الدقيقة من مثل قول بشار فى عمر بن العلاء[1] :

دعانى إلى عُمَــرٍ جودُهُ ... وقولُ العشيرة بحرٌ خِضَمّ
ولولا الذى ذكروا لم أكن ... لأمدح ريحانةً قبل شَمّ
فتى لا ينــام على دِمْنَة ... ولا يشرب الماء إلا بدم[2]
إذا نَبَّهتْك حروب العُداة ... فنَبِّهْ لها عمراً ثم نَمْ

وقول على بن جبلة فى أبى دُلَف العِجْلى[3] :

كل مَنْ فى الأرض من عَرَبٍ ... بين باديه إلى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منك مكــرمةً ... يكتسيهـا يوم مُفْتَخَره
إنمـا الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَغْزاه ومُحْتَضَره
فإذا ولَّى أبو دلــفٍ ... ولَّت الدنيا على أثَرِهْ

وتفيض كتب الأدب والنقد بمثل هذه المعانى الرائعة . وكذلك كان شأنهم فى الرثاء ، إذ أدخلوا فيه كثيراً من خيوط الحكمة والعظة التى قرءوها ،

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٥ والأغانى ١٩٣/٣ .
(٢) الدمنة : الحقد .
(٣) طبقات الشعراء ص ١٧٢ .

obeikandl.com

كما أدخلوا كثيراً من أحاسيسهم النفسية الباطنة ، على شاكلة مرثية أبى العتاهية لأحد أصدقائه المسمى علىّ بن ثابت ، وفيه يقول[١] :

وقد كنت أغدو إلى قَصْرِه ... فقد صرتُ أغدو إلى قَبْرِه
أخٌ طالما سرَّنى ذكرُه ... فقد صرت أشْجَى لدى ذكره
فتىً لم يملّ النّدَى ساعةً ... على عُسْرِه كان أو يُسره
فصار علىٌّ إلى ربِّه ... وكان علىٌّ فتى دهره
أتته المنيةُ مغتالةً ... رُوَيْداً تخلّلُ من سِتْره
فلم تُغْنِ أجناده حوله ... ولا المسرعون إلى نَصْره
وخلّى القصورَ التى شادها ... وحلّ من القبر فى قَعْره
أشدُّ الجماعة وَجْداً به ... أشد الجماعة فى طَمْره

وتحولوا بالهجاء من نقائضه الطويلة المعروفة عند جرير والفرزدق والتى تزخر بالأنساب والأيام إلى ضرب قصير يشبه الأمثال الفارسية التى تنسب إلى بزرجمهر وأضرابه ، فأصبح كلمات قليلة حادة ، تشبه السهام السريعة النافذة ، وكل شاعر يبحث عن سهم مُصْمٍ يرسله إلى خصمه يريد أن لا يُبْقِى عليه ولا يَذر ، ولعل ذلك ما جعلهم يعمدون فيه إلى القذف فى الأعراض والرمى بالزندقة والإلحاد ، حتى بين الزنادقة أنفسهم ، مثل بشار وحماد عجرد ، وقد استطار الهجاء بينهما ، وفى بشار يقول حماد[٢] :

نهاره أخْبَثُ من ليله ... ويومُه أخْبث من أمسه
وليس بالمُقْلع عن غيِّه ... حتى يُوَارى فى ثَرَى رَمْسه

وكان يكثر من هجائه بالعمى على شاكلة قوله[٣] :

ويا أقبحَ من قِرْدٍ ... إذا ما تعمّى القِرْدُ

ويغضب بشار ويثور ، فيرميه بالزندقة وعبادة إلهى النور والظلمة على شاكلة قوله[٤] :

يا بن نَهْيَا رأسٌ علىَّ ثقيلُ ... واحتمالُ الرأسين خطبٌ جليلُ

---

(١) ديوان أبى العتاهية ص ١٢٤ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٣/٧٤ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٦٧ .
(٤) أمالى المرتضى ١/١٣٣ .

فادعُ غـيرى إلى عبادة ربَّيْـ ... ـنِ فإنى بواحـدٍ مشغولُ

وما زال هذا الضرب القصير من الهجاء اللاذع ينمو حتى تحوّل عند ابن الرومى إلى ما يشبه الصور الساخرة « الكاريكاتورية » وسنعرض لمثلك عنده فى الفصل التالى .

ومرَّ بنا أنهم أثاروا فى هذا العصر دعوة الشعوبية ، ومن خلالها تطور فن الفخر القديم ، فلم يعد فخراً فى حدود العصبيات القبلية فحسب ، بل أخذ يجول فى حدود العصبيات الجنسية ، على نحو ما أسلفنا عند بشار . وليس معنى ذلك أن الفخر القبلى اختفى فقد ظلت منه أسراب ، ودخل فيه الموالى أيضاً ، فافتخروا باليمنية والمضرية ولاء ، على نحو ما نجد عند بشار فى افتخاره بمضر ، وكان أبو نواس يكثر من افتخاره باليمنية مواليه[1] ، ومثله هرون مولى الأزد الذى كان يردُّ على الكميت ، ويفخر بقحطان[2] .

وتطور الغزل تطوراً قويًّا ، ولا نقصد ما ظهر فيه من الغزل بالغلمان وآثامه ، وإنما نقصد الغزل الطبيعى ، فإن المرأة الحرة الكريمة لم تعد موضوعه ، وإنما أصبح موضوعه الإماء والجوارى ممن كانت تزخر بهن دور الرقيق ومجالس الشعراء وقصور الأشراف والخلفاء ، وقد أذاعوا فيه ضروباً من الحرية والصراحة المكشوفة كما أذاعوا فيه إغراء شديداً ودعوة إلى التهتك والخلاعة وانتهاز الفرص واللذات ، من مثل قول بشار[3] :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخبَّأةٍ ... قولٌ تغلِّظه وإن قَبُحَا

عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ ... والصعبُ يمكن بعدما جمَحا

ومن الحق أنهم بجانب ذلك استغلوا الغزل العذرى العفيف الذى شاع فى نجد وبوادى الحجاز أيام الأمويين ، واشتهر بالضرب على مثاله العباس بن الأحنف ، وحتى الشعراء الماجنون من أمثال بشار وأبى نواس ومطيع بن إياس كانوا ينظمون

---

(١) انظر طبقات الشعراء ص ١٩٥ وما بعدها والديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٧/٧٥ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٢٥ والأغانى ٣/٢٠٩ ، ٢٢١ .

منه أحياناً ما يُعْجب ويروع . وهم يروون أن الذى بعث أبا نواس على صحبة والبة وأرغبه فيه بيتان سمعهما منه ، هما :

ولهـــا ولا ذنبٌ لهـــا حُبٌّ كأطـــراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائمًا فالقلب مجروح النواحى (١)

ويمتلئ الأغانى بآلاف المقطوعات الغزلية التى نظمها هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، وكثير منها يتَّسم بدقة الذوق ورقة الشعور ولطف الإحساس .

واستوت للخمرية صورتها فى هذا العصر ، وحقًّا نجد منها نماذج عند الوليد بن يزيد ، ولكن هذا العصر هو الذى انتهى بها إلى شكلها النهائى ، سواء من حيث القصر أو من حيث التنويع فى معانيها وأخيلتها ، ويكفى أنه أنتج أبا نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكئوسها وسُقاتها وأديرتها . وكان طبيعيًّا أن تُحدث الخمر وما يتصل بها من مجون ردَّ فعل فى العصر ، فإذا شعر الزهد يدور على الألسنة فى مقطوعات قصيرة تنفِّر من المتاع بزخارف الحياة ، وتتحدث عن الموت ومصير الإنسان حديثاً يهز النفوس على نحو ما قدمنا فى غير هذا الموضع .

وهذه كلها تجديدات من حيث المضمون ، أما من حيث الشكل والصيغة فقد مر بنا فى الفصل السابق ما استحدثوه من أوزان بتأثير الغناء والموسيقى ، وكانوا من أجلهما يُؤْثرون الأوزان المجزوءة ، وشاع ذلك فى الغزل والخمر ، وعرفوا المخمَّس والمزدوج ، واختار أصحاب الشعر التعليمى القالب الأخير لشعرهم ، وكأنما أغراهم به وفرة الموسيقى فيه ، حتى تتلافى ما فى معانيهم من جفاف المعرفة والحكمة .

ومن المؤكد أن الشعراء عانوا كثيراً فى صياغاتهم ، حتى وصلوا إلى أسلوبهم الذى يسمى بأسلوب المولَّدين ، وهو أسلوب ناصع شفاف ، لايُعْنى بالثروة اللغوية من حيث هى ، وإنما يعنى قبلها بثروة الفكر وباستثارة الوجدان ، حتى يعرض المعانى النادرة والأحاسيس الدقيقة . وهو أسلوب ليس فيه ركاكة ولا ابتذال ، ومع ذلك فهو أسلوب مبسَّط استطاعوا بذوقهم الحضرى الرقيق أن يُحْدثوه ،

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٠٨ .

فإذا لغته أشد ما تكون نقاء ، وإذا هذا النقاءُ يخْفى عنا جهدهم فى صنعه وما عانوه من تصيُّد صيغه الصوتية لمعانيهم وأحاسيسهم واختيار أثوابه وأبراده الوضّاحة لأفكارهم ودقائقها الخفية .

والحق أنهم كدحوا طويلا فى معانيهم وصياغاتهم وأخيلتهم وصورهم ، حتى يحققوا ما يريدون من تفوق وبراعة ، وقد أكبُّوا على ينابيع اللغة العذبة ينهلون منها ويستمدون أساليبهم ، وقد تَنِدّ فيها بعض ألفاظهم الأعجمية ، ولكن ذلك يأتى فى الندرة وعلى سبيل التظرف والتملح . أما بعد ذلك فهم يتمسكون بالصياغة العربية النقية ، ويستخدمون كل وسائلهم فى صوغ أساليب تموج بالحيوية والفكر العميق والحس الدقيق فى نظام موسيقى رشيق . ولم ينسوا أبداً أن روعة الصياغة لا تقل عن روعة الفكر والحس جمالا ، وكلنا نعرف قصة غضب بشار على تلميذه سَلْم الخاسر حين صاغ بيتاً له صياغة جديدة أجمل من صياغته ، فقد قال بشار :

مَنْ راقب الناسَ لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ

ولم يكد يسمعه منه سلم ، حتى أعجب بمعناه وأخذ يفكر فى صياغته صياغة جديدة أعذب وأرشق ، وما زال يفكر حتى قال :

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللـذة الجسورُ

ونُقل البيت إلى بشار ، فحَنِقَ على سلم حَنَقاً شديداً[1] ، ولم يكن مصدر هذا الحنق سوى تلك الكسوة اللفظية البديعة التى كسا بها سلم معناه . وكان الشعراء يجتمعون دائماً لينشد كل منهم خير ما نظم ، متنافسين فى ذلك متسابقين ، وكلما ألمَّ منهم شاعر بمعنى غريب تداولوه ، ونسوق لذلك مثالا ، هو ما يُرْوَى من أن أبا نواس استمع إلى خمرية للحسين بن الضحاك يقول فيها :

كأنمـا نُصِبَ كأسه قَمَرٌ يَكْرَعُ فى بعض أنجم الفَلَكِ

فنعر (صاح) نعرة منكرة ، فقال له الحسين : مالك قد رعتنى ؟ قال : هذا المعنى

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٠ وانظر الأغانى ٣/١٩٩ – ٢٠٠ .

أنا أحق به منك، وسترى لمن يُرْوَى ، ثم أنشد بعد أيام خمرية ، يقول فيها :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ يقبِّل فى داجٍ من الليل كوكبا[1]

وعلى هذا النحو كانوا لا يزالون يُجْهدون أنفسهم فى صناعتهم سواء فى معانيها وصورها أو فى ألفاظها وصياغاتها ، وكان كل منهم يَتَنَفَّسُ على صاحبه ما يصل إليه من جديد فى المعنى أو فى الصورة ومن طريف فى الصياغة والعبارة ، وحقًّا كانوا أجانب فى الغالب ، ولكنهم حذقوا العربية وتحولوا يصوغون منها عقوداً ولآلىء بديعة ، وكانوا يعرفون ذلك فى أنفسهم وعملهم ، فقد سأل سائل بشاراً ما صناعتك ؟ فأجابه : أثقب اللؤلؤ[2] ، ونظم ذلك شعراً ، فقال يصف نفسه[3] :

لله ما راحَ فى جوانحه من لؤلؤٍ لا يُنام عن طَلَبه
يخرجْنَ من فيه فى النَّدِيِّ كما يخرج ضوءُ السراج من لهَبِهْ

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — ما انتهت إليه صنعة الشعر فى هذا العصر من رقى وازدهار ، فقد ارتقى الشعراء بها من وجوهٍ كثيرة ، من حيث المعانى وما أثاروا من غرائبها ، ومن حيث الأحاسيس وما بعثوا من طرائفها ، ومن حيث الصياغات وما نسقوا من فرائدها . وسنرى بعد قليل أن ضروب إحسانهم لذلك كله انتهت بهم إلى مذهب جديد هو مذهب التصنيع ، ولكن هذا المذهب لم يظهر تواًّ ، بل أخذ يُعِدُّ له جيلان ، جيل بشار ، وجيل أبى نواس وأبى العتاهية ، ونحن نقف عند صنعتهم قليلا ، لنرى مبلغ مهارتهم وحذقهم.

٥

بشار وصنعته فى شعره

هو بشَّار بن بُرْد كان أبوه من سَبْى المهلَّب بن أبى صُفْرة حين كان والياً على خراسان من سنة ٧٩ إلى ٨٢ وفد على البصرة مع بعض الأسرى وأقام بها مع

(١) زهر الآداب ٢/١١٤ .
(٢) أغانى ٣/١٥٩ .
(٣) عيون الأخبار ٢/١٨٢ .

زوجه ، وربما كانت رومية ، وقد وُلد لهما بشار فى العقد الأخير من القرن الأول للهجرة أعمى لا يبصر [١] ، وحدَّدَتْ هذه الآفة حياته إذ جعلته يتجه إلى مجالس العلماء والأدباء ، وكان ذكيًّا ، فأخذ يتعلم العربية ، وساعده على ذلك مَرْباه فى بنى عُقيل ، إذ وهبته امرأة المهلب لإحدى صديقاتها منهم [٢] وأيضاً فإنه حين أيفع تبدَّى حتى أدرك كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ويقال إن إباه كان طيَّانا يضرب اللَّبِن [٣] ، وكان له أخوان احترفا مهنة الجزارة [٤].

ولما استيقظت فى بشار مواهبه الشعرية أخذ يغدو على المِرْبَد ، فيستمع للفرزدق وجرير وأضرابهما ، وتعرض لجرير يريد أن يردَّ عليه حتى يشتهر ولكنه لم يأبه له . وظل يُعنى بهذا الفن فن الهجاء ، حتى يقال إنه كان سبب حتفه [٥]. ولا نشك أنه منذ نشأته كان يقصد سَرَاة البصرة بمديحه ، حتى يجلب لنفسه منهم بعض المال . وأخذ يخالط علماء الكلام ، فكان يصحب واصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة ، وأعدَّه ذلك لأن يتصل بآراء الزنادقة التى كان يردّ عليها واصل وغيره من المتكلمين ، كما أعده لأن يعرف شيئاً من منطق اليونان وفلسفتهم مما تسرب إلى تلك الجماعة . ولا نصل إلى سنة ١٢٦ للهجرة حتى يفسد ما بينه وبين واصل لما أظهره من زندقة سبق أن عرضنا لها ، وأباح واصل دمه ، ففرَّ عن البصرة ووفد على حَرَّان فمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وتحول إلى واسط حين ولى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، فلزمه وقدم له مدائح يتضح فيها تعصبه لقيس لأن الأمير كان قيسيًّا وكان هو ولاؤه أيضاً لقيس المضرية ، وكذلك كان الخليفة مروان بن محمد مضرى النزعة ، فلجَّج فى هذا الباب طويلا . وتطورت الظروف ، وتوفِّى واصل وقامت الدولة العباسية على رماح الخراسانيين ، غير أنه لم يعد إلى البصرة إلا بعد وفاة عمرو بن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة [٦] ، وقد عاد ثائراً ، شاعراً كأن الدنيا أقبلت عليه ،

(١) أغانى ٣/١٣٦ ، ١٤١ وانظر طبقات الشعراء ص ٢٢ .
(٢) أغانى ٣/١٣٦ .
(٣) أغانى ٣/١٣٧.
(٤) انظر فيهما البيان والتبيين ١/٣٠ .
(٥) أغانى ٣/٢٤٥ .
(٦) البيان والتبيين ١/٢٥ .

واشتعلت الجذوة التى كانت خامدة فى نفسه جذوة الشعوبية ، ونسب نفسه فى ملوك الفرس الأولين[١] . ونراه متردداً إزاء الخلفاء العباسيين ، لما قدّم سابقاً من شعره فى يزيد بن عمر بن هبيرة ومروان بن محمد ، ولعل ذلك ما جعله يحس بشىء غير قليل من الفرح حينما نشبت ثورة إبراهيم بن عبد الله على المنصور فى البصرة سنة ١٤٥ للهجرة فأسرع يمدحه بميمية فضّلها الأصمعى على ميميتى جرير والفرزدق . ولما أخفقت الثورة أنكرها بشار ، وحذف منها أبياتاً ، وأظهر أنه قالها فى عدوّ المنصور أبى مسلم ، وكان أولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمِ ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالمِ

فقال : أبا مسلم بدلا من« أبا جعفر»[٢]. ونراه يكثر من وفادته على خالد ابن برمك فى أثناء ولايته على فارس ، فيقرّبه منه ويبذل له أموالا كثيرة[٣]. وكذلك كان يصنع ممدوحوه من ولاة البصرة وعلى رأسهم عُقْبة بن سلم الهُنائى . ولما علا نجم خالد وابنه يحيى فى عصر المهدى رأيناه يفد على الخليفة يمدحه ، فيقرّبه منه ويحضره مجالسه ، ويعلم بما فى شعره من الرَّفَث فى الغزل وأنه يصرّح فيه بأشياء تفسد الشباب ، فينهاه عن ذلك ، ويشكو فى شعره من هذا النهى كثيراً . ولا تلبث الأخبار أن تتواتر على سمع المهدى بزندقته . فيأمر بقتله ، يقول ابن المعتز : « وقيل : بل قيل للمهدى إنه يهجوك فقتله ، والذى صح من الأخبار فى قتل بشار أنه كان يمدح المهدى ، والمهدى يُسْمع عليه ، فرُمِىَ بالزندقة ، فقتله ، قيل : ضربه سبعين سوطاً ، فمات ، وقيل بل ضرب عنقه . وكانت وفاته سنة سبع وقيل ثمان وستين ومائة[٤] » .

وواضح أن عوامل متشابكة أثرتْ فى شخصية بشار الأدبية ، فقد كان مولى ، وكان يحس بعمق أنه قنّ ابن قِن وأنه من أسرة فقيرة متخلفة فى المجتمع ، فانطوى على مرارة ولّدت فيه ميلا قويًّا إلى العدوان ، وقد ورث عن جنسه الفارسى مزاجا حادا واندفاعاً شديداً نحو المتع الحسية ،

(١) أغانى ٣/١٣٨ والديوان ١/٧٣ .
(٢) أغانى ٣/١٥٦ — ١٥٨ وانظر ٣/٢١٣ — ٢١٤ .
(٣) أغانى ٣/٢٠٢ وانظر ٣/١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٩٢ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٢١ .

وضاعف ذلك عنده أنه كان مكفوفاً ، فغدت وسيلته إلى الجمال والإحساس به حسية : سمعية ولمسية ، وغزله من هذه الناحية يصور آثار فقده لبصره وما تركه حواس السمع واللمس والشم من آثار فى نفوس المكفوفين . واندمج فى هذه المكوِّنات الشخصية والجنسية مكوِّن البيئة وما كانت تكتظ به من دور الرقيق والجوارى والإماء. كل ذلك دفعه لصراحة صريحة فى غزله وخمره ، وهى صراحة وجَد فيها رجال الدين من وعاظ البصرة خطراً على المجتمع ، فقاوموه مقاومة عنيفة[١] ، وبلغ من شدة هذا الخطر أن تدخل المهدى وحاول أن يرده عن هذه الطريق[٢] ولكن الموجة كانت حادَّة ، ودخل فيها جمهور الشعراء لا فى البصرة وحدها ، بل فى الكوفة أيضاً وفى بغداد ، وكان الجوارى وغناؤهن من أهم ما يروِّج لها ، إذ أتحْنَ لهذا الشعر الماجن الجديد انتشاراً واسعاً ، وكن يُبتَعْنَ وينتقلن من العراق إلى الحواضر العربية ، فكن يحملنه فى حقائبهن ويُذعنه فى كل مكان .

واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية فى تكوين شخصية بشار ، فقد كان يجالس المتكلمين كما قدمنا كما كان يجالس من يعرفون زندقة الفرس ودهرية الهند وآراءهم فى التناسخ ، ويجمع ذلك كله قولُ صاحب الأغانى « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عُبَيْد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القُدُّوس وعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ورجل من الأزد — يعنى جرير بن حازم — فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال.. وأما بشار فبقى متحيراً مخلِّطاً وأما الأزدى فمال إلى قول السُّمَنِيَّة وهو مذهب من مذاهب الهند الدهرية يقول أصحابه « بتناسخ الأرواح »[٣] وأكبر الظن أن بشاراً لم يظل متحيراً طويلا ، فقد اعتنق الزندقة[٤] كما اعتنقها صالح وابن أبى العوجاء وقُتلوا بها جميعاً لعهد المهدى. والمهم أن بشارا كان واقفاً على معارف عصره وثقافته الدخيلة وكان لها تأثير واسع فيه ، حتى آمن بما يقول به المانوية والمزدكية . وربما كان أهم ثقافة أثرت فى شعره هى الثقافة

(١) أغانى ٣/١٧٠ .
(٢) أغانى ٣/١٨٢ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .
(٤) أغانى ٣/١٤٥ وانظر البيان والتبيين ١/١٦ وما بعدها .

العربية التى هيأته للتفوق فى فن الشعر ، وساعدته فى ذلك نشأته اللغوية ، واختلافه إلى المربد ، وأيضاً خروجه إلى البادية حتى يأخذ اللغة من ينابيعها الأصلية . وبذلك تحولت إليه السليقة اللغوية العربية تحولا لفت إليه الأنظار ، حتى كان لايقول ما يُستكره فى شعره[١] ، بل حتى كان يميز تمييزاً دقيقاً بين جيد الشعر ورديئه وصحيحه ومنحوله[٢] :

وكثيرٌ فى حياة بشار يملأ نفوسنا عليه ازدراء ، فنحن نزدرى فجره وتهتكه وفسقه وزندقته وشعوبيته ، وقد لقى عند المهدى جزاءه وإن جاء متأخراً . غير أننا إذا تركنا هذه الجوانب السيئة فى حياته إلى شعره وجدنا معاصريه ومن جاءوا بعدهم يُجْمعون على أنه هو الذى نهج للعباسيين طريقتهم الجديدة ، وهى طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الأصول التقليدية للشعر القديم ، حتى لتبدو فيه نزعة محافظة وخاصة فى مدائحه ، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلا ، إذ يستوفى فيها قيم التعبير الجزلة وكل ما تقتضيه الجزالة من رصانة وقوة فى البناء . ومعنى ذلك أن بشارا الفارسىّ الجنس قد أثّر فيه مَرْباه العربى حتى أصبح عربيًّا خالصاً فى أسلوبه وتعبيره . ولا يعنى ذلك أنه كان غائباً فى مديحه عن عصره ، فهو يزاوج بين الماضى والحاضر : يصف الأطلال والصحراء ولكن بذوق حضرى جديد ، فيه رقة ، وفيه دقة فى استنباط المعانى وتوليدها . إنه ربيب بيئة المتكلمين ، وقد أخذ عنهم قدرتهم فى بسْط الأدلة وتفصيل الأفكار وتفريعها وتشعيب المعانى وتشقيقها ، كما أخذ عن الفرس أمثالهم وحكمهم ، وتحول إلى معانى الشعر الجاهلى يستخرج منها مالا يُحْصَى من خواطر ، ويستطيع أن يتبين ذلك كلُّ من يقرأ مديحه ، فنسيجه العام قديم ، ولكن خيوطاً كثيرة جديدة تلمع فى هذا النسيج ، حتى فى نماذجه الموغلة فى التشبُّه بالبدو ، ونقصد الأراجيز ، مثل أرجوزته التى سبق أن تحدثنا عنها والتى نظمها تحدياً لعقبة بن رؤبة إذ نراه يقول فى تَشْبيبها[٣] :

صَدّتْ بخدٍّ وجَلَتْ عن خدِّ ... ثم انثنتْ كالنَّفَسِ المرتدِّ

(١) أغانى ٣/١٤٩ .
(٢) أغانى ٣/١٤٣ .
(٣) أغانى ٣/١٧٥ وديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٢١٨ .

ويُدخل فى نسيجها بعض الحكمة ، فيقول :

الحرُّ يُلْحَى والعصا للعبْـد   وليس للمُلْحِفِ مثلُ الردّ (١)

وصاحبٍ كالدُّمَّل المُمِدِّ   حملته فى رقعةٍ من جِلْدى

وينتقل إلى المديح فيصف ممدوحه بالشجاعة والكرم على طريقة العرب ويقول فى تضاعيف ذلك :

ما كان منى لك غيرُ الودِّ   ثم ثناءٌ مثلُ ريح الوَرْدِ

وبمثل هذه الخيوط الجديدة يختلف مديح بشار عن المديح القديم ، فالقصيدة فى الظاهر توغل فى التمسك بإطار القدماء ومعانيهم ، وفيها مع ذلك كثير من عقل بشار وذوقه وبراعته فى التصوير . ويضرب القدماء لتلك البراعة مثالا : أنه ما زال يُدير فى نفسه بيت امرئ القيس فى وصف العُقاب :

كأن قلوبَ الطير رَطْبًا ويابسا   لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى (٢)

حتى قال فى المديح :

كأن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا   وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه (٣)

وإذا تركنا مديحه إلى فخره وجدنا فيه نفس متانة البناء ونفس الصياغة الباهرة التى تميَّز بها شعراء العرب السابقين من أمثال زهير والنابغة وجرير ، وإنه ليضيف إلى معانيه مبالغة تزيدها جمالا على شاكلة قوله مفتخراً بقيس مواليه فى ميميته المشهورة (٤) :

إذا ما غضِبْنا غَضْبةً مُضَرِيَّةً   هتكنا حجابَ الشمس أو تُمْطِر الدما

وكنا نتمنى أن لو ظل يفتخر بالعرب وأن لا ينقلب مع الثورة العباسية يفتخر بآبائه من الفرس ، حتى لا يؤذينا فى فخره بشعوبيته ، وكان حريًّا به أن يظل مؤمناً بالعرب الذين أورثوه هذا الفن الجميل .

وتطوَّر الهجاء عنده على هدى الأمثال الفارسية القصيرة ، إذ استطاع هو وصاحبه حماد عجرد أن يحدثا فيه هذا النمط القصير الذى سبق أن عرضنا

---

(١) يلحى : يلام .

(٢) العناب : ثمر أحمر ، أو هو عنب الثعلب ، والحشف : ما يبس من التمر .

(٣) أغانى ٣/١٩٦ والنقع : الغبار .

(٤) أغانى ٣/١٦٢ .

obeikandi.com

له ، وقلنا إنه كان يقوم على القذف فى الأعراض والاتّهام بالزندقة والإلحاد، مع أنهما كانا جميعاً زنديقين ملحدين . ويصوّر بشار هجاءه فيقول :

تَزِلُّ القوافى عن لسانى كأنها حُمَاتُ الأفاعى ريقُهن قضاءُ[1]

ويقول الجاحظ فى المفاضلة بينه وبين خصمه : « وما كان ينبغى لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر لأن حماداً فى الحضيض وبشاراً مع العيُّوق[2] ، وليس فى الأرض مولّد قروى يُعَدُّ شعره فى المحْدَثِ إلا وبشار أشعر منه[3] » .

وإذا تحولنا إلى الغزل عند بشار وجدناه فيه يعكف على نماذج القدماء شأنه فى كل شعره ، فهو يقرأ الغزل الجاهلى ويقرأ غزل عصر بنى أمية عند عمر بن أبى ربيعة وأضرابه من أهل مكة والمدينة وعند جميل بثينة وأضرابه من شعراء نجد وبوادى الحجاز ، وبذلك يعرف معرفة دقيقة شعر الأطلال والوصف الحِسّى للمرأة عند الجاهليين ، كما يعرف شعر عمر وأمثاله مما يصور قصة الحب ووقائعه وحياته وموته وما يُشْفَعُ به من بعض الحرية ، كما يعرف شعر العُذْريين وما يكسوه من عفة وطهر ، ويحوِّل كل ذلك إلى غزله . ولا يقف عنده ، بل يضيف إليه إثمه ومجونه . وكل ما رفدته بيئته به من أسباب العبث التى زخر بها جَوُّ المجتمع العباسى وما أذاعه فيه الإماء والجوارى من مجون . وكان بشار لا يأبه للقيم الخلقية والدينية ، وكان ضريراً ، فاعتمد على حاسّتى السمع واللمس فى غزله ، ولعل من الطريف أنه يصرح بذلك فى مثل قوله[4] :

يا قومُ أذْنى لبعض الحى عاشقةٌ والأذْنُ تعشق قبل العين أحيانا

ولا يصبح الغزل عنده فى أكثر جوانبه حسيًّا فحسب ، بل يصبح ضرباً من نداء الغريزة النوعية بصورة ليس فيها أدنى احتشام، بل فيها غير قليل من العدوان على المجتمع وآدابه . ولانبالغ إذا قلنا إنه هو الذى دفع الشعراء من بعده إلى التمادى فى تصوير المتاع الحسى ، حتّى الشاذ منه على نحو ما هو معروف عند أبى نواس . وحقًّا قد نقرأ عنده غزلا يحتفظ فيه بكرامته وكرامة المرأة

(١) الديوان ١٢٩/١ والحيوان ٢٦١/٤ يضرب به المثل فى العلو . والحمات : أنياب الأفعى .

(٢) العيوق : نجم أحمر فى طرفه المجرة ، يضرب به المثل فى العلو .

(٣) الحيوان ٤٥٣/٤ .

(٤) طبقات الشعراء ص ٢٩ .

من مثل قوله[١] :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أنَمْ　　　ونَفَى عنى الكَرَى طيفٌ ألَمّ

نَفِّسِي عنى قليــلا واعلمى　　　أننى يا عَبْدَ من لحم ودم

إن فى بُرْدَىَّ جسماً ناحــلا　　　لوتوكَّأتِ عليــه لا نهدم

ولكن كثرة الغزل المادى الصريح عنده طغت على مثل هذه الأبيات التى كان يشكو فيها الصبابة وتباريح الحب . وينبغى أن نعرف أنه مع ماديته فى غزله كان لايزال يستقى من غزل القدماء ومعانيه ، ولا يزال يتتبع حتى صورهم فيصوغها صياغة جديدة تلائم رقة عصره . فقد روى الرواة أنه أنشد قول كثيِّر :

ألا إنما ليلى عَصَا خَيْزُرانة　　　إذا غمزوها بالأكفِّ تلينُ

فقال : والله لو زعم أنها عصا مُخٍّ أو عصا زُبْد ، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصاً ، ألا قال :

ودَعْجاء المحاجرِ من مَعَدٍّ　　　كأن حديثَها ثَمـرُ الجِنانِ

إذا قامت لِمِشْيَتِهـا تثنَّتْ　　　كأن عظامها من خيْزُرانِ[٢]

ومعنى ذلك أن بشارا كان يستغل صور الغزل القديم ، وكان يستغل أيضاً معانيه ، ومن خير ما يصور ذلك وقوفه عند طول الليل والسهاد فيه الذى طالما ذكره الجاهليون والإسلاميون ، فقد عرضه فى معارض مختلفة ، تارة يقول[٣] :

النَّجـمُ فى كبدِ السماء كأنه　　　أعمى تحيَّر ما لديه قائـدُ

ويقول تارة ثانية[٤] :

خليـلىَّ ما بال الدُّجَى ليس يبرحُ　　　وما بالُ ضوء الصبح لا يتوضَّحُ

أضـلَّ الصبــاحُ المستنيرُ طريقَهُ　　　أم الدهر ليلٌ كله ليس يَبْرَحُ

ويقول تارة ثالثة[٥] :

كأن جفــونه سُمِلَتْ بشوكٍ　　　فليس لنـومِـه فيهـا قرارُ

---

(١) أغانى ٣/١٥٠ وما بعدها .
(٢) أغانى ٣/١٥٤ .
(٣) انظر التبيان : شرح ديوان أبى الطيب المتنبى للعكبرى (طبعة الحلبى) ٢/٧٢ .
(٤) الديوان ٢/١٠٤ .
(٥) الديوان ٣/٢٤٩ .

obeikandl.com

أقول وليلتى تـزداد طـولا ... أما لليـل بعـدهم نهـارُ
جَفَتْ عينى عن التغميض حتى ... كأنَّ جفونها عنهـا قصارُ

وعلى هذه الشاكلة لايزال يدير المعانى القديمة فى ذهنه ويولِّد منها ويستخرج طرائف رائعة ، وعلى الرغم من أنه كان مكفوفاً كان يحسن الوصف حتى ليقول الأصمعى : « إنه ما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يُشبِّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره ، فيأتى بما لايقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله[١] » ومن وصفه البديع لإحدى المغنيات قوله[٢] :

وصفراءَ مثلِ الخيزُرانة لم تَعِشْ ... ببؤسٍ ولم تركب مطية راعِ
تصلِّى لها آذاننـا وعيـوننا ... إذا ما التقينا والقلوبُ دواعِ
جرى اللؤلؤ المكنونُ فوق لسانها ... لزوَّارها من مِزْهَرٍ ويَراعِ[٣]
إذا قلَّدتْ أطرافَها العودَ زلزلتْ ... قلوباً دعاهـا للوساوس داعِ
كأنهمُ فى جَنَّةٍ قد تلاحقتْ ... محاسنُها من روضة ويَفاعِ[٤]
يروحون من تَغْريدها وحديثها ... نَشاوى وما تسقيهمُ بصُواعِ[٥]
لعوبٌ بألباب الرجال وإن دنتْ ... أطيعَ التُّقَى والغَىُّ غير مطاعِ

وفى كل مكان من غزله نجد أثر الحضارة فى رقة حسه ، سواء حين يصف حنينه وحرمانه وصدود محبوباته أو حين يصور لقاءه لهن ووداعهن أو ذكرياته معهن على شاكلة قوله[٦] :

لقد كان ما بينى زمانًا وبينها ... كما بين ريح المِسْك والعَنْبر الوَرْد

وقولـه[٧] :

عندها الصبرُ عن لقائى وعندى ... زفراتٌ يأكلن قَلْبَ الجليدِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح كيف كانت صنعة بشار فى شعره تقوم على

(١) أغانى ٣/١٤٢ .
(٢) أمالى المرتضى ٢/١٣٩ .
(٣) يراع هنا : مزمار .
(٤) اليفاع : المرتفع من الأرض .
(٥) الصواع هنا : الجام يشرب فيه .
(٦) أمالى المرتضى ٢/٦٤ والديوان ٢/٣١٤
(٧) الديوان ٢/٢٧٢ .

الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية فى الشعر العربى والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة . وثَبَّتَ بشار هذه الطريقة بحيث أصبحت منهجاً عامًّا للشعراء من بعده ، وبحيث عُدَّ بحق زعيم المجددين ، فهو الذى نهج لهم هذا النهج من التطور بالشعر العربى تطوراً لا تنقطع الصلة فيه بين حاضره وماضيه .

٦

صنعة أبى نواس

اسمه الحسن بن هانئ ، وُلد بالأهواز سنة تسع وثلاثين ومائة ، وكان أبوه مولى [١] لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ، قدم إلى هذه البلدة مع جند مروان بن محمد ، وتزوج بها جارية فارسية أهوازية تدعى جُلّبان ، كانت تغسل الصوف ، وأولدها عِدَّةً ، منهم أبو نواس ، الذى تلقن الفارسية عنها وحذقها . ومات هانئ وابنه صغير ، فانتقلت أمه إلى البصرة ، وهو ابن ست سنين ، فأسلمته إلى الكُتَّاب ، ولم يلبث أن اختلف إلى دروس العلماء حين شَبَّ عن الطوق ، ويظهر أن رقة حال أمه اضطرتها إلى أن تلحقه بعطار ، فمكث عنده مدة ، وملكتُه الشعرية تتفتح فى نفسه . وتصادف أن عامل الأهواز دعا هذا العطار إليه ، فصحب معه الغلام ، وكان والبة بن الحُباب يزور هذا العامل لقرابة بينهما ، فتعرَّف على أبى نواس ، وكان وضيئاً صَبيحاً ، وأعْجب كل منهما بصاحبه ، وأسلم أبو نواس إليه قياده ، فاصطحبه معه إلى الكوفة حيث غمسَه فى كل ماكان ينغمس فيه مع رفاقه أمثال مطيع بن إياس ، فخرج ماجناً على طريقتهم ، وهى طريقة لم تكن تخلو من شذوذ [٢] . ويعود إلى البصرة ويلزم خلفا الأحمر ويحمل عنه علماً كثيراً وأدباً واسعاً ، ويتعلق بجنان جارية

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٤ . بغداد ٧/٤٤٠ والديوان ٣١ — ٣٢ .
(٢) العمدة لابن رشيق ١/٤٣ ، وتاريخ

الثقفيين ، فتزورُّ عنه ، لسوء سلوكه ، وينظم فيها كثيراً من غزله ، وتجذبه بغداد فيتحول إليها ويقدِّمه إسحق الموصلي إلى الرشيد ، ولا يلبث أن يغضب عليه فيُسْجَن ، لما يلجّج فيه من عصبية مسرفة لمواليه القحطانيين[١] . ويطرق باب البرامكة في أثناء ذلك ، فيحول بينه وبينهم أبان بن عبد الحميد ، ويدخلان في معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس هو الذي يكثر فيها من السهام[٢] ، ويظهر أن أبواب الفضل بن يحيى البرمكي فُتحت له ، بينما ظل جعفر أخوه منقبضاً عنه ، فهجاه بينما مدح الفضل مدائح رائعة . ولما أوقع الرشيد به وبأخيه وأبيهما سنة ١٨٧ للهجرة حزن أبو نواس ، ورحل إلى مصر لغرض الترويح عن نفسه ، فمدح والي الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد وكان فارسيًّا . ولم يطب له المقام وحَنَّ إلى بغداد ، فقدم عليها بعد وفاة الرشيد ، واستقبله الأمين استقبالا حافلا ، ونادمه ، فلاكته الألسنة ، ويقال إن المأمون حين خلع أخاه ووجَّه بطاهر بن الحسين لمحاربته كان يكتب كتباً تُقرأ على المنابر بخراسان يذكر فيها عيوبه وكان مما عابه به أن قال : « إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافرا يقال له الحسن بن هانئ واستخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ، ويهتك المحارم[٣] » . ويقال إن الأمين حبس أبا نواس زمناً لخلاعته ، ويقال بل حبسه الفضل بن الربيع وزيره ، وفي أشعاره ما يدل على هذا الحبس[٤] ، على أن الأجل لم يطل به ، فقد توفِّي قبل دخول المأمون بغداد ، وتختلف الروايات في سنة وفاته ، هل كانت سنة ١٩٥ أو سنة ١٩٩ كما تختلف في سببها[٥] .

وتدل نصوص مختلفة على أن أبانواس في أثناء مكثه في الكوفة والبصرة كان

---

(١) انظر في ذلك طبقات الشعراء ص ١٩٥ – ٢٠٠ وأخبار أبي نواس ص ١٥٥ وما بعدها .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٠٢ ، ٢٤١ والأغاني (طبعة الساسي) ٢٠/٧٣ والحيوان ٤/٤٤٨ والديوان ص ١٨٠ .
(٣) زهر الآداب ٢/١١١ .
(٤) زهر الآداب ٢/١١١ – ١١٢ .
(٥) أخبار أبي نواس ص ٩٧ وانظر طبقات الشعراء ص ١٩٤ .

يختلف إلى حلقات اللغويين وخاصة حلقة خلف[١] ، وهو الذى دفعه إلى حفظ مئات الأراجيز ، ويقال إنه خرج إلى البادية سنة ، لينهل من ينابيع اللغة الأصلية . ولم يختلف أبو نواس إلى حلقات اللغويين وحدهم بل اختلف أيضاً إلى حلقات الفقهاء والمحدّثين[٢] والمتكلمين ، حتى قالوا إنه بدأ حياته متكلماً ثم نظم الشعر[٣] ، ومر بنا فى غير هذا الموضع كيف كان يجلب إلى شعره ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم .

ولعلنا بذلك كله نستطيع أن نعرف مكونات شخصيته الأدبية ، وهى تقترب من مكونات بشار ، فقد ألم بثقافات عصره إلماماً واسعاً وورث عن الفرس حدة مزاجهم وأخذت البيئة الماجنة تؤجج هذه الحدة ، بكل ما أخذه عن والبة وأضرابه ، حتى لنجده يخطو فى الفسق والمجون خطوات بالقياس إلى بشار ، إذ أخذ يتغنى بالغلمان ، وكأنما لم تكفه الجوارى ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يكثر من ذلك تمويهاً وخداعاً عن فسقه الحقيقى بالجوارى والإماء[٤] ، وربما كان لما اتُّهم به من شذوذ أثر فى ذلك فاندفع يعلن على رءوس الأشهاد كذب مايقال عنه ، ومن ثَمَّ قد يكون من الخطأ أن نبالغ فى تصوير هذه الوصمة عند أبى نواس وأن نبحث تفسيرَه على أساسها .

على أن من الممكن أن تكون مجاهرة أبى نواس بغلامياته ضرباً من التظرف والدعابة كان يسوقه فى مجالس جماعته الماجنة من أمثال الخاركى وأبى يعقوب التمار وأبى هفان والحسين بن الضحاك الخليع[٥]، ويشهد معاصروه بأنه كان ظريفاً يخلب الناس بظرفه وكثرة مُلَحه[٦]. وهو فى ذلك يختلف عن بشار ، فبشار فى مزاحه جِدٌّ وصرامة ، أما أبو نواس فليس فيه من الجد والصرامة شى ء

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٩٤ ومن قول أبى نواس فى رثائه .

كنا متى ما ندن منه نغترف
رواية لا تجتنى من الصحف

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٠١ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٧٢ .

(٤) طبقات الشعراء ص ٣٠٩ .

(٥) انظر تراجمهم فى طبقات الشعراء وصلتهم بأبى نواس .

(٦) طبقات الشعراء ص ١٩٥ .

وكان يشعر بذلك فى نفسه ، بل كان يتخذ إليه كل وسيلة حتى ليقول[١] :

أتتبَّع الظرفاءَ أكتب عنهمُ كيما أحدِّث من أحِبُّ فيضحكا

وجعله هذا الجانب قريباً إلى أهل عصره من خلفاء ووزراء، فكانوا يرسلون فى طلبه إلى مجالسهم فيفاكههم ويسوق لهم نوادر تضحكهم ، ولعل ذلك ما جعله يتحول فى بعض القصص إلى شخصية مضحكة ، وهى وظيفة كان يقوم بها أبو دلامة معاصره . لكن لا شك أن الناس فى بغداد كانوا يتناقلون عنه نوادر كثيرة أعدَّتْ لنمو شخصيته القصصية المضحكة مع مر الزمن . ومما يدخل فى هذا الباب ورواه الجاحظ عنه أن مجنوناً موسوساً يسمى أبا الحاسب كان يهذى بأنه سيصير ملكاً وأنه ألْهم ما يحدث فى الدنيا من الملاحم فكان أبو نواس يقول أشعاراً على لسانه ، وما يزال يوردها على سمعه له حتى يحفظها ، وكان يتحدث فيها عما سيقع عبثا ودعابة ، ويروى الجاحظ قطعة من تلك الأشعار[٢] .

ومثل هذه الشخصية ينبغى أن نتأنَّى فى الحكم عليها وأن لا نظن أن كل ما تنظمه يصور نفسيّها أو وقائعها ، فكثير منه نُظم تظرفا ودعابة وعبثا ، ونستطيع أن نضع فى هذا الجانب من التعابث أطرافاً مما فى شعره من شعوبية وزندقة وخروج على الإسلام من مثل قوله السابق[٣] :

يا ناظرا فى الدين ما الأمرُ ؟ لا قدرٌ صحَّ ولا جَبْرُ
ما صحَّ عندى من جميع الذى تذكـــر إلا المـــوت والقبر

وقولـــه[٤] :

يا أحمدُ المُرتَجى فى كلِّ نائبةٍ قُمْ سيِّدى نَعْصِ جَبَّارَ السموات

ومثل هذا كثير فى ديوانه ، ولا نشك فى أنه كان ينظمه أثناء معاقرته للخمر هزلا وفكاهة . وأيضاً لا بد أن نلاحظ شيئاً آخر هو كثرة ما حُمل عليه من شعر الخمر والمجون ، يقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن

---

(١) الحيوان للجاحظ ٤/٧٥ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٢٨ .
(٣) انظر الوساطة ص ٦٣ والموشح ص ٢٧٧ .
(٤) الديوان ص ٢٥٠ .

تنسب كلَّ شعر فى المجون إلى أبى نواس وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر، كلَّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون[١]». ولا نبالغ إذا قلنا إن دواوين الحسين بن الضحاك الخليع ونظرائه من المجَّان تلك التى فُقِدت قد دخلت فى ديوان أبى نواس. لذلك يكون من الخطأ أن نحمل عليه كل ما جاء فى ديوانه وإن كنا بعد ذلك لا ننفى عنه جملة خمرياته وغزلياته العابثة فكثير منها رُوِى عند الجاحظ وابن المعتز وأضرابهما من النقاد الأثبات، ومن المؤكد أنه كان ماجناً عابثاً على فكاهة فيه. وأقوى ما تتجلَّى ملكة الشعر عنده فى خمرياته، وكان يحتذى فيها على مثال الوليد بن يزيد[٢]، وقد استشهدنا فيما أسلفنا بأمثلة منها عنده، وطرائفها عند أبى نواس أكثر من أن تستقصى، إذ كان يعرف كيف يولّد فى المعانى وكيف يستخرج دفائنها ودقائقها، كما كان يعرف كيف يأتى بالصور النادرة من مثل قوله[٣]:

وكئوسٍ كأنهنَّ نُجومٌ   جارياتٌ برُوجُها أيدينا
طالعاتٌ مع السقاة علينا   فإذا ما غَرَبْنَ يغربن فينا

وقوله[٤]:

وكأسٍ كمصباح السماء شربتُها   على قُبْلَةٍ أو موعدٍ بلقاءِ
أتتْ دونها الأيام حتى كأنها   تساقُطُ نورٍ من فتوق سماءِ

وهو على هذه الشاكلة فى غزله أيضا، إذ كان يعرف كيف ينوِّع فى معانيه، وكيف يستمد من أوعية القديم فى الحنين والصدِّ والإعراض والدلال ما تتلألأ فيه خواطره وتتألق فيه أحاسيسه. وكان ينحو فى غزله منحى سهلا، حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب، من مثل قوله الذى مرَّ بنا[٥]:

حامـلُ الهوى تَعِبُ   يستخفُّـه الطَّرَبُ
إن بكى يحقُّ له   ليس ما به لَعِبُ

وهو فى غزله بالغلمان ينحو كثيراً منحى التعابث والهزل، ولعل ذلك

---

(١) طبقات الشعراء ص ٨٩.
(٢) اغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٠.
(٣) الديوان ص٣٣٩.
(٤) الديوان ص ٦٣.
(٥) معاهد التنصيص والديوان ص ٣٦١.

obeikandi.com

ما جعله يحشد فيه كثيراً من ألفاظ العامة ، وخاصة إذا كان الغلام أعجمياً ، فإنه يستحلفه بآلهة العجم وبكتبهم المقدسه وما يؤلهون من كواكب ويقدسون من كهنة النار ، ويسوق له فى أثناء ذلك كلمات أعجمية كثيرة . وكان فى هجائه كغزله بالغلمان يتعابث ويماجن ، وأحياناً يجدّ ، فيرمى بالزندقة ويقذف فى الأعراض على شاكلة بشار . وهجاؤه الأول أخف ، ومن أمثلته هجاؤه لإسماعيل بن نيبخت ، وكان يرتعى على مائدته ، ولكنه لم يسلم من عبثه ، فقال فيه(١) :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـىِ إذا ما شُقَّ يُرْفَـا

وقال أيضاً(٢) :

على خُبْزِ إسماعيلَ واقيةُ البُخْلِ ... وقد حلَّ فى دار الأمانِ من الأكلِ
وما خبزُه إلا كآوى يُرَى ابنُها ... ولم تُرَ آوى فى الحزونِ ولا السَّهْلِ
وما خُبْزُه إلا كعَنْقاءَ مُغْرِبٍ ... تُصَوَّرُ فى بُسْطِ الملوكِ وفى المُثْلِ
يحدّثُ عنها الناسُ من غيرِ رؤيةٍ ... سوى صورةٍ ما إن تُمِرُّ ولا تُحْلى

وكان يتوقَّر فى مديحه وشعره الرسمى ، ويختار له إطاراً جزلا قويًّا متيناً ، يقدم له بوصف الصحراء على طريقة القدماء ، وقد وصف فى قصيدته التى مدح بها الخصيب رحلته من بغداد إلى الفسطاط ، وهى التى يقول فيها(٣) :

فما جازه جودٌ ولا حَلَّ دونه ... ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

وكان يجنح فى مديحه إلى المبالغة والإسراف على نفسه فى الارتفاع بالممدوحين عن البشر ، حتى ليقول فى الرشيد(٤) :

وأخفتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى إنه ... لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

ويقول فى الأمين — إن صحَّ أنه له — مستغلا طريقة المتكلمين(٥) :

ألا يا خيرَ من رأتِ العيونُ ... نظيرك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

(١) الديوان ص ١٧٢ .
(٢) الحيوان ١٢٩/٣ والديوان ١٧١ وأخبار أبى نواس ١٢٧ .
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ١١٦ ونسب ابن المعتز الأبيات للنظام . انظر طبقات الشعراء ص ٢٧٢ .

وفضلك َلا يُحَدُّ ولا يُجَارَى ولا تحوى حيازَته الظنونُ
خُلقتَ بلا مشاكلة لشيء فأنت الفَوْقُ والثَّقَلان دونُ

ويقول فى الفضل بن يحيى البرمكى[١] :

أوْحَدَهُ الله فما مثلُهُ لطالب ذاك ولا ناشد
وليس على الله بمُسْتَنْكَرٍ أن يجمع العالم فى واحد

وبذلك كان من أوائل من أعدوا لاتساع المبالغة فى المديح العباسى ، ومضى الشعراء من بعده يبالغون ، حتى رفعوا ممدوحيهم إلى مرتبة الآلهة .

وربما كان ، مما يتصل بهذا الفن التقليدى : فن المديح عنده ، استخدامُه للرجز ، وخاصة فى طردياته ، وهو فيها يتفوق تفوقاً منقطع النظير ، وقد أشاد بها الجاحظ إشادة رائعة على ما مرَّ فى غير هذا الموضع . وبينما نراه يعنى بصناعته اللفظية فى المديح والرثاء نراه يفرط فى السهولة حين يتغزل ، وكان ينظم كثيراً فى أوزان المجتثّ والمقتَضب والمتدارك ومايشاكلها من البحور المجزوءة ، معبراً عن أحاسيس الحب ، وملائماً بينها وبين الغناء الذى عاصره . وله شعر فى الزهديات ربما نظمه مجاراة لأبى العتاهية وأمثاله ممن كان تروج أشعارهم فى العامة ، أما الزعم بأنه كفّ فى آخر حياته عن الملاذ فهو زعم باطل[٢] ، إنما تلك كانت لحظات صحْو تعتريه من حين إلى حين . ومن بديع ما نظمه فى هذه اللحظات قوله[٣] :

يارُبَّ وَجْه فى التراب عَتيق ويارُب حُسْن فى التراب رقيق
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ إلى منزِل نائى المحل سحيق
وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالك وذو نَسَبٍ فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وواضح مما قدمنا أن صنعة الشعر عند أبى نواس كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الإطار القديم فى المديح والرثاء وما يشبههما ، بينما كانت تنفك من هذا الإطار

(١) الحيوان ٣/٦٣ وما بعدها .
(٢) انظر فى ذلك طبقات الشعراء ص ١٩٤ .
(٣) الديوان ١٩٢ .

أحياناً فى الغزل والخمريات ، وقد تظل له قوة البناء فيهما ، وتظل له روعة التصوير ودقة العاطفة ، وقد يهبط وخاصة حين يتعابث ويهزل إلى لغة العامة وإلى أسلوب ليس فيه شىء من قوة ،كان يعمد فيه إلى اللحن أحياناً[١]. ولعل ذلك ما جعل بعض القدماء يقول عنه ، وهو قول صحيح : « إنه كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفاً وركاكة[٢] » . على أنه ينبغى أن لا ننسى أن شعراً كثيراً منتحلا أضيف إليه ، حتى لنجد موشحة مبثوثة بين أشعاره فى ديوانه[٣]، والمشهور أن الموشحات ظهرت بعده بقرن على الأقل ، ولم تظهر فى المشرق وإنما ظهرت فى الأندلس وظلت هناك طويلا قبل أن تنتشر فى العالم العربى . ولعل فى ذلك ما يدل على أن العصور التالية لعصر أبى نواس ظلت تضيف إليه كثيراً من الأشعار ، ولم تتورع أن تضيف إليه بعض الموشحات وكان أهم باب نفذوا منه إلى ذلك باب المجون والأدب المكشوف .

٧

صنعة أبى العتاهية

هو إسماعيل بن القاسم ، كان أبوه من موالى بنى عَنَزَة ، وكانت أمه بنت زياد الحارثى أحد موالى بنى زُهْرة ، وقد وُلد لهما سنة ١٣٠ للهجرة فى قرية عين التمر بالقرب من الأنبار غربىّ الكرفة . ويُظَنُّ أن القاسم كان نبطياً ، وقد كان يحترف الحجامة ، وانتقل — على ما يظهر — بأسرته إلى الكوفة فنشأ بها أبو العتاهية . ولما ترعرع احترف مع أخيه زيد بيعَ الخزَف ، ولم تلبث مواهبه الشعرية أن استيقظت فى نفسه ، فكان ينشد من يشترون منه

(١) انظر ترجمته فى الموشح للمرزبانى .
(٢) طبقات الشعراء ص ١٩٥ .
(٣) الديوان ص ٣٤٦ .

الجرار شعره ، فيعجبون به وينقشونه على جِرارهم[١] . ولم يطل به الأمر حتى انصرف عن بيع الخزف ، ولزم المخنثين من شباب الكوفة ، ولبس ملابسهم[٢] وانتظم فى سلك المُجَّان من أمثال مطيع بن إياس . وتعرَّف فى أثناء ذلك على إبراهيم الموصلى مغنى المهدى والرشيد فيما بعد ، واتفقا على الرحيل إلى بغداد ، غير أن الأبواب فيها لم تفتح له ، فعاد أدراجه إلى الحيرة[٣] ، وتعلق فيها بجارية لبنى معن بن زائدة كانت نائحة ولها حسن وجمال ، ولكن مواليها حالوا بينها وبينه[٤] . وأخذ شعره فيها يذيع ، فاستدعاه الموصلى ووصله بالمهدى فمدحه ونال جوائزه السنية . وحدث أن رأى جارية من جوارى القصر هى عُتْبة ، وكانت من جوارى رائطة بنت السفَّاح زوج المهدى ، فوقعت فى قلبه وأخذ يتغزل فيها غزلا كثيراً ، وبلغ المهدىَّ ذلك فغضب لتعرضه لحُرَمه وأمر بحبسه ، وشفع فيه خاله يزيد بن منصور حتى خلَّصه ، فعاد إلى مثل حاله معها ، فتدخلت رائطة ، وأثارت حفيظة المهدى عليه ، فأحضره وضربه بالسياط فى الدواوين بين يديه . غير أنه عاد فرقَّ له ، ووعده أن يستوهبها من مولاتها ويدفعها إليه . وعلمتْ بذلك عتبة ، وكانت تزدريه على نحو ما كانت تزدرى جنان أبا نواس ، فاسترحمت المهدى واستجارت به ، وقالت إنه غير عاشق ، إنما يريد الذكر والشهرة بتغنيه فىّ وامتحنْه بمال ذى خَطَر ، فإنه سيُلهيه عنى ويشغله عن ذكرى ، فأمر له المهدى بمائة ألف ، ولم يُسَمِّ دراهم ولا دنانير ، وأعطاه صكًّا بذلك ، فكان كلما حاول أن يصرف الصكَّ قدمه له الموظفون بالدواوين دراهم ، فكان يأباها . وظل شهراً مطالباً بالدنانير ، ونسى عُتْبة وذكرها فأشرفت عليه يوماً وقالت : « يا صفيق الوجه لو كنت عاشقاً لشغلك العشق عن المفاضلة بين الدراهم والدنانير . وبلغ كلامها المهدى ، فعلم أنها كانت أعرف بقصة الرجل ، فأمسك عن أمره[٥] . غير أنه ظل يقرِّبه منه ، وتبعه الهادى والرشيد يسيران معه نفس السيرة ، ويقال إنه

---

(١) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/٤ وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة ضافية فى هذا الجزء .
(٢) أغانى ٧/٤ .
(٣) أغانى ٤/٤ .
(٤) أغانى ٢٤/٤ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٠ وانظر زهر الآداب ٣٥/٢ .

لم يكن يفارق الرشيد فى سفر ولا فى حضر[١] .

ولا نمضى طويلا فى عصر الرشيد ، حتى نرى أبا العتاهية يتنسك ويلبس الصوف ويزهد ويترك حضور المنادمة والقول فى الغزل ، ويُحْضره الرشيد ويأمره أن يعود إلى ما كان عليه ، فيمتنع ، فيضربه ستين سوطاً ويأمر بحبسه . وينظم أشعاراً كثيرة يستعطفه ، وتُنْقَلُ إلى الرشيد . وكان مما نظمه قوله[٢] :

أمـا والله إن الظـلم لُومُ ... وما زال المُسىء هو الظَّلومُ
إلى ديَّان يوم الـدين نمضى ... وعند الله تجتمـع الخصوم

فعطف عليه الرشيد وأطلق سراحه ، وتصادف أن انقبض عن الدنيا وغشيته سحابةٌ من الحزن بعد فتكه بالبرامكة ، فكان يستريح إلى أشعار أبى العتاهية الجديدة فى الزهد ، ويفسح له فى مجالسه ونزهاته . ولما تحولت مقاليد الأمور إلى المأمون كان يقرِّبه منه ويصله[٣] ، ويستحسن شعره ، إلى أن توفى سنة عشر ومائتين وقيل بل سنة إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة . وواضح أن انقلاباً حدث فى حياة أبى العتاهية ، فتحول مما كان يأخذ فيه مع شعراء بغداد لعصره من لهو ومجون إلى زهد فى الدنيا ومتاعها الزائل ، وكاد يقصر شعره على ذلك . ولم يلبث معاصروه أن تساءلوا هل هذا الزهد مردُّه إلى تقوى حقيقية ، أو مرده إلى زندقة ومانوية فهو يستمد فيه من مانى والزنادقة على شاكلة صالح بن عبد القُدُّوس وأضرابه ممن كانوا ينزعون فى زهدهم منزعاً مانويًّا؟ . وتعرض له حَمدُويه صاحبُ الزنادقة يريد أن يثبت التهمة عليه ، فقعد حجَّاماً فى الطريق ، يَحْجِمُ الفقراء والمساكين[٤] وحامت حوله شُبَهٌ كثيرة ، وقيل إنه يَقْنُتُ للقمر ويبتهل له ابتهال المانوية[٥] ، وشنَّع عليه واعظ كبير من وعاظ بغداد ، هو منصور بن عمار ، فقال إنه زنديق[٦] ، وقال كثيرون إنه لا يؤمن بالبعث[٧] . ويقول ابن المعتز فى

(١) أغانى ٤/٦٣ .
(٢) أغانى ٤/٥١ .
(٣) أغانى ٤/٥٣ وما بعدها .
(٤) أغانى ٤/٧ .
(٥) أغانى ٤/٣٥ .
(٦) أغانى ٤/٣٤ ، ٥١ .
(٧) أغانى ٤/٢ .

ترجمته إنه « يُرْمَىَ بالزندقة مع كثرة أشعاره فى الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والنَّار والجنة[١] ، والذى يصح لى أنه كان ثنويًّا » ويقول فى ترجمة ابنه العتاهية : « كان أبوه خبيث الدين ، يذهب مذهب الثنوية ، إلا أنه كان ناسك الظاهر[٢] » . وفى الأغانى أنه كان ينظم شعراً يدل على توحيده لينفى تهمة الزندقة عنه ، من مثل قوله[٣] :

ألا إننا كلنا بائـــدُ ... وأى بنى آدمٍ خالدُ
وبدؤهمُ كان من ربِّهم ... وكلٌّ إلى ربِّه عائـــد
فياعجبا كيف يُعْصى الإلـ ... ـهُ أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آيةٌ ... تدلّ على أنه واحـــدُ

ولو أننا وصلتنا أشعاره كاملة لأمكن الحكم عليه حكماً دقيقاً ، غير أن ما طُبع من شعره ونُشر باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » إنما هو اختيارات فقيه أندلسى ، اختارها بذوقه الدينى السليم ، ولعل ذلك ما يجعلها تتضارب مع ما يقال عن الشاعر من أن شعره إنما هو فى ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد[٤] ، فالمعاد والنشور مبثوثان فى اختيارات الفقيه ، بحيث يمكن أن يقال إن هذه التهمة غير صحيحة. وإن كنا فى الوقت نفسه نشك فى أن تكون صورة هذه المختارات ضابطة لحقيقة زهدياته فقد يكون الفقيه اختار من ديوانه تلك الأشعار التى كان ينظمها تغطية وتعمية لحقيقة أمره . ولا يشك من يقرؤها فى أن فكرة الموت ومصير الإنسان فى حياته كانت هى شغله الأول ، فقد دار عليها أكثر تلك الزهديات . وفى الأغانى نَصٌّ مهم عن أحمد بن حرب ، يقول فيه : « كان مذهبُ أبى العتاهية القولَ بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادَّين لا من شىء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البِنْية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردّ كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً . . وكان مجبراً[٥] » . وكأنه حاول بذلك أن يوفق بين نظرية الإسلام فى التوحيد ونظرية المانوية فى أن

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢٨ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٦٤ .
(٣) أغانى ٤/٣٥ والديوان ص ٦٩ .
(٤) أغانى ٤ / ٢ .
(٥) أغانى ٤ / ٥ .

هناك إلهين إلها للنور والخير وإلها للظلمة والشر ، وللخير أجناسه وللشر أجناسه ، وقد بُني منهما العالم . ونجد فى شعره القليل الذى وصلنا ما يؤكد أنه كان حقاً يرى هذه النظرية ، ويعتقدها من مثل قوله[١] :

الخير والشر هما أزواجُ   لذا نتاجٌ ولذا نتاجُ
لكل إنسان طبيعتان   خيرٌ وشرٌّ وهما ضدَّان
والخيرُ والشرُّ إذا ماعُدَّا   بينهما بونٌ بعيدٌ جدَّا

فهو فى زهده كان يتصل بالمانوية كما شهد معاصروه وكما تشهد أشعاره ، وقد مرّ بنا أن مثال الزاهد عنده هو نفس مثاله عند الهنود، وهو بوذا الذى فرّ عن ملكه وساح مسكيناً يفكر فى ملكوت السموات والأرض. فزهدُ أبى العتاهية لم يكن زهداً إسلامياً خالصاً ، بل كانت تشوبه عناصر أجنبية .

وإذا رجعنا إلى شعره الذى روته المنتخبات المنشورة له بالاسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » وما روته له كتبُ الأدب من مثل الأغانى وجدنا أشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب ، إذ يتراءى لنا فى مرحلتين واضحتين تمام الوضوح : مرحلة أولى نراه فيه على شاكلة الشعراء المعاصرين له الذين يُجْرون شعرهم فى تصوير اللهو والمجون ومجالس الأنس والطرب . ولا نجد فى أخباره أنه تبدَّى أو دخل فى البادية كما صنع بشار وأبو نواس ولا أنه لزم كبار اللغويين أمثال خلف الأحمر ، وكأنه استقى شعره من القطع العباسية الجديدة التى كان يغنى فيها المغنون ، ولم يحاول التزود تزوداً واسعاً بالتراث القديم ، ولذلك قلما نجد عنده ضخامة البناء وما يُطْوَى فيها من أسلوب جزل رصين ، وهو من هذه الناحية يقترب اقتراباً شديداً من اللغة اليومية التى عاصرها ، حتى فى مديحه وشعره الرسمى الذى كان يتلقى به الخلفاء، وخير ما يمثله قصيدته اللامية فى المهدى ، وهى التى يستهلها بقوله[٢] :

ألا ما لسيِّدتى ما لها   أدَلاًّ فأحمل إدْلالها

---

(١) أغانى ٤/٣٧ والديوان ص ٣٤٦ .   (٢) أغانى ٤/٣٣ والديوان ص ٣٠٩

وإلا ففـــيمَ تجنَّتْ وما جَنَيْتُ سَقَى اللهُ أطلالها

ويستمر فى هذا الأسلوب السهل العذب حتى ينتقل إلى المديح فيقول :

أتتْه الخـــلافةُ منقادةً إليه تُجَرِّرُ أذْيالهـــا
ولم تك تصلحُ إلا له ولم يك يصلحُ إلا لها
ولو رامهـــا أحدٌ غيره لزُلْزلتِ الأرضُ زلزالها
ولو لم تُطعه بناتُ القلوب لما قبلَ اللهُ أعمـــالها
وإن الخليفة من بُغْضِ لا إليه ليُبْغض من قالها

وواضح أنه يختار لمديحه أسلوباً خفيفاً يجعله قريباً إلى النفوس ، وهو فى ذلك يخطو بعد بشارٍ خطوةً ، فقد كان بشار يحافظ فى مدائحه على الأسلوب الجزل القوى ، وكذلك كان يصنع أبو نواس غالبا ، أما أبو العتاهية فالتزم هذا الأسلوب اليسير لا فى غزلياته شأن أبى نواس بل أيضاً فى مدائحه ، وهى سهولة تقترن بموسيقى صافية حلوة يبدو الشعر فيها كأنه أنغام خالصة . وتبلغ هذه السهولة الغاية فى غزله ، حتى ليقول ابن المعتز إن « غزله لين جداً مشاكل لكلام النساء » . وكأن ملازمته للمخنثين فى مطلع حياته وتعرفُّه على لغتهم هما اللذان أتاحا له هذه السهولة المفرطة التى تلقانا فى مثل قوله[1] :

كأنها من حسنها دُرَّةٌ أخرجها اليَمُّ إلى الساحلِ
كأنَّ فى فيها وفى طَرْفها سواحراً أقبلنَ من بابل
لم يُبْقِ منى حبُّها ما خلا حُشاشةً فى بدنٍ ناحلِ
يا من رأى قبلى قتيلاً بكى من شدة الوَجْد على القاتل

والرقة واضحة فى هذه الأبيات ، وهى تقع من القلوب موقع الزُّلال البارد من الظمآن ، وكأنها الماء السلسبيل .

وانتقل أبو العتاهية بهـــذا الأسلوب السهل الممعن فى سهولته إلى الدور الثانى من حياته دور الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والتفكير

(١) أغانى ٤/٤٥ .

فى الموت وظلمة القبر ووحشته، ويسود زهدياته فى أثناء ذلك تشاؤم أسود حزين، فالحياة ليس فيها إلا الألم وإلا الموت وغصصه، وأولى بالإنسان فيها أن لا يفرح بمتعها، بل أولى به أن يبكى على نفسه، يقول[1]:

لـدواعى الخـير والشـ ـرِّ دنـوٌّ ونـزوحُ
سيصير المـرءُ يومًا جسداً ما فيـه روحْ
بين عينىْ كلِّ حىٍّ علمُ المـوت يلـوح
كلنـا فى غفلة والـ ـموتُ يغدو ويروح
نُحْ على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنوح
لتمـوتنَّ وإن عُمِّـ ـرْتَ ما عُمِّر نـوح

ويقال إن الملاحين غنَّوا الرشيد هذه المقطوعة فى إحدى نزهاته بدجلة، فلما سمعها جعل يبكى وينتحب[2]. وفى هذا الخبر ما يدل على قرب شعره من روح الشعب، إذ لم يكن المغنون وحدهم الذين يغنون به، بل كان أفراد الشعب من ملاَّحين وغيرهم يتغنون فيه، مما يدل على أنه كان له صدى عميق فى نفوس الطبقة العامة التى لم تكن تعرف الترف ولا حياة الدعة واللهو تلك التى عاشها الأمراء العباسيون والأشراف الذين نعموا بملذات الحياة كما عاشها الشعراء الماجنون فى نوادى بغداد. ولم يكن هذا الشعر الزاهد قريباً منها فى معانيه فحسب، بل كان قريباً منها فى ألفاظه، بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إنه كان من نفس ألفاظها اليومية. ويتحول كثير منه إلى ما يشبه وعظ الوُعَّاظ ممن كانوا يعظون الناس فى المسجد الجامع، فيضعون الموت تحت أعينهم للعبرة والعظة[3]، ولعل ذلك ما يجعل الاستفهام والأمر والتعجب يشيع فى تلك الزهديات. على أن مسحة مهمة تعلوها هى مسحة الكآبة والبَرَم بالحياة، وهى ليست مسحة إسلامية، فالإسلام لا يشوِّه الحياة ولا يبغِّضها إلى الناس، بل يدعوهم إلى العمل الصالح، أما

---

(١) أغانى ٤/١٠٣ والديوان ص ٦٦.
(٢) أغانى ٤/١٠٤.
(٣) انظر القصيدة الطويلة التى يصف فيها بالتفصيل مشهد الموت والغسل والدفن من ص ٢٩٣ إلى ٢٩٥ فى الديوان.

أبو العتاهية فيصورها فى سواد خانق ، وهو سواد جاءه فيما نظن من قراءاته فى المانوية واختلاطه بأصحابها ، إن لم يكن من اعتناقه لها ولكن على أساس فلسفته التى قدمناها من التوفيق بينها و بين الإسلام ، بحيث آمن بربه وأقرَّ بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، كما يشهد بذلك كثير من أشعاره .

ومما لا ريب فيه أنه كان يكثر من قراءة المترجمات ، وخاصة فى باب الحِكَم والموت ، فقد قالوا إنه نظم فى بعض مراثيه قول بعض الفلاسفة لما حضروا موت الإسكندر : « الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس » فقال فى رثاء على بن ثابت :

وكانتْ فى حياتك لى عظاتٌ　　　وأنت اليوم أوعظُ منك حيًّا [(١)]

ومرَّت بنا مرثية أخرى له فى على ، وقد جعله تصويره لآلام الحياة والموت يُجيد فى هذا الموضوع . وكان كثيراً ما ينقل حكم الأوائل من فرس وغير فرس إلى شعره ، ولعل ذلك ما أتاح له أن ينظم مزدوجته : « ذات الأمثال » التى امتدت إلى أربعة آلاف بيت . ويقول الجاحظ تعليقاً على قوله : « أسرعَ فى نقص امرىء تمامه » : ذهب إلى كلام الأول : « كل ما أقام شخَص ، وكل ما ازداد نقص ، ولو كان الناس يميتهم الداء ، إذن لأعاشهم الدواء [(٢)] » .

وأظن أن فيما أسلفنا ما يدل فى وضوح على صنعة أبى العتاهية ، وهى صنعة كانت تقوم على السهولة المفرطة فى اختيار الألفاظ والعبارات ، حتى لتقترب من لغة الناس اليومية ، بل حتى ليصيبها أحياناً ضرب من الابتذال ، ومن أجل ذلك كان الأصمعى يقول : « شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنَّوَى [(٣)] » و يقول أبو الفرج إنه كثير الساقط المرذول [(٤)] على أننا نلاحظ أنه لم يُدخل فى شعره ألفاظاً أعجمية ، إنما هو القرب فقط من كلام العامة ، وكان يتخذ ذلك مذهباً فى صنعة شعره ، حتى يكون أكثر تداولا ،

---

(١) البيان والتبين ١/٤٠ وانظر ٣/٢٥٧ والأغانى ٤/٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٥٤ .

(٣) أغانى ٤/٤٠ .

(٤) أغانى ٤/٢ .

ومع ذلك لم يخرج عن الفصحى ، وظلت عنايته بالمعانى تحول بين شعره وبين السقوط . والذى لا شك فيه أنه بسَّط لغة الشعر لا فى مجال اللهو والغزل والخمر كما صنع بشار أحياناً وأبو نواس غالباً ، بل أيضاً فى مجال الزهد والمديح ، فحتى المديح لم يقف عائقاً فى سبيل هذا الأسلوب المبسّط السّهل ، إذ انفك عن كثير من تقاليده القديمة من حيث مقدماته فى وصف الصحراء والرحلة على النوق ، وكذلك من حيث لغته الضخمة الجزلة وما كان يشوبها من الغريب عند بشار وأضرابه . وأدته هذه السهولة وما يدمج فيها من تبسيط إلى اختيار الأوزان الخفيفة والمجزوءة يصوغ منها شعره ، بل لقد اندفع يجدد فى الأوزان على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق مظهراً براعة فائقة .

٨

ظهور مذهب التصنيع

كان ذوق التصنيع أو الزخرف والزينة يعمُّ فى كثير من جوانب الحياة العباسية فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء وكثير من القواد والوزراء والأشراف تكتظ بالستور والبُسط المعلّقة على الحوائط والنوافذ متنافسة بألوانها الزاهية وما عليها من التصاوير المذهبة ، وكانت الحيطان والسقوف والأبواب تذهَّب وتفضض ، كما كانت الغرف والأبهاء تزدان بالأثاث النفيس والفُرش الأنيقة . ويصف أحمد ابن حرب المعروف بأبى هفان مجلساً للأمين ، فيقول : إنه دعا الشعراء ، فدخلوا إليه فى « إيوان (بهو) فائح فاسح يسافر فيه البصر ، جُعل كالبيضة بياضاً ، ثم ذُهِّبَ بالإبريز المخالَف بينه باللازورد ، ذى أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قُمِّعت رءوسها بالجوهر النفيس ، وقد فُرِشَ بفرُشٍ كأنها صبغ الدم ، منقَّش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان ، ونُضِّد فيه العنبر والكافور وعجين المسك . . والتزايين[1] » ويصف آخر داراً للواثق فيقول :

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٠٩ .

« إنها كانت مُلْبَسة الحيطان بالوَشْي المنسوج بالذهب وإنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة تغنيه وعليها مثل ثيابه[١] » .

وكانت دور كثير من الوزراء لا تقل عن دور الخلفاء أناقة مثل دور البرامكة وبنى سهل ، وكذلك كانت دور الأمراء والأشراف والموظفين الكبار ممن كانت تُغْدق عليهم الدولة . وعلى نحو ما تأنقوا فى قصورهم وفرشهم تأنقوا فى أطعمتهم ، فاحتفلوا بموائدهم ، ويعرض علينا الجاحظ فى كتابه البخلاء أطرافاً من مآكلهم ومشاربهم ، كما يعرض علينا ذلك أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى ، وقد عرفوا آنية الصينى المنقوشة ، ومرّ بنا وصف أبى نواس لكأس مذهبة ، نُقش عليها منظرُ صيد لكسرى وفوارسه . ولم يكن تأنقهم فى ثيابهم أقل من تأنقهم فى طعامهم وشرابهم ، وكان لكل طائفة زِىٌّ ، فللقضاة زىّ ولأصحابهم زى وللشُّرَط زى وللكتّاب زى[٢] . وبالغ النساء فى أزيائهن وفى زينتهن ، وخاصة الجوارى من فارسيات ورومیات ، فكن يصبغن شفاههن وخدودهن ويُسْدلن شعورهن على وجوههن بصور مختلفة ، تثير الإغراء والفتنة .

ولم يكن الشعراء يعيشون بعيداً عن هذا الجو من التصنيع والزخرف والزينة ، فقد كانوا ينادمون الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ويختلطون بالجوارى والإماء ، وانصبَّ فى حجورهم كثير من الأموال التى جعلتهم يعيشون فى ترف ونعيم بالغ ، بل يحققون كل ما يريدون من تصنيع وتنميق فى حياتهم . وفى أخبارهم ما يدل على الأموال الطائلة التى كانوا يحصلون عليها ، يقول ابن رشيق : « وأما المجدودون فى التكسب بالشعر والحُظوة عند الملوك فمنهم سلم الخاسر مات عن مائة ألف دينار ولم يترك وارثاً ، وقال فيه أبو العتاهية :

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وكان صديقه جداً ، فقال سلم : ويلى جمع القناطير من الذهب ونسبنى إلى ما ترون من الحرص . . ومروانُ بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١١٦ . (٢) البيان والتبيين ٣/١١٤ .

مرة . . وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما وصل إليه ، لكنه كان متلافا سمحاً ، وكان يتساجل فى الإنفاق هو وعباس بن الأحنف وصريع الغوانى (مسلم بن الوليد) وكان البحترى مليئاً قد فاض كسبه ، وكان يركب فى موكب من عبيده[١]» .

وعلى هذه الشاكلة توفرت الأموال لدى الشعراء ، وعاشوا فى عالم مترف زاخر بالحلية والزينة ، يقول الجاحظ : « وكانت الشعراء تلبس الوَشْىَ والمقطَّعات والأردية السود وكل ثوب مشهَّر » ويقول إنهم كانوا يتندرون على من يتزيَّى بزى الماضين [٢] ، ويقول صاحب الأغانى عن سَلْم الخاسر : « كان يأتى باب المهدى على البرذون (الفرس المطهم) قيمته عشرة آلاف درهم ، والسرج واللجام المقذوذين (المزينين) ولباسه الخزُّ والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه[٣] ». وكان غير سلم يصنِّع تصنيعه فى حياته وثيابه وطيبه .

وأخذ هذا التصنيع والتنميق يتسرب من حياة الشعراء العامة إلى حياتهم الفنية الخاصة ، وهى حال طبيعية توجد دائماً فى الصنائع حين يعمُّ الترف ، فإذا هى تتحول إلى زخارف دقيقة . وليس الشعر وحده الذى أخذ يسود فيه هذا التصنيع فقد كان يشيع فى فن العمارة وبناء المساجد والقصور ، كما كان يشيع فى التصوير الذى كان يُستَخْدَمُ زينة وزخرفاً للكتب والقصص ، فلا عجب أن ينتقل إلى الشعر والشعراء ، وأن ينمو مع الزمن حتى تصبح القصيدة كأنها واجهة لمسجد مزخرف بديع ، قد تألَّق فى وشى مرصَّع كثير .

ولعل أقدم النصوص التى تشير إلى نشأة مذهب التصنيع وأول من اعتنقوه ما نجده عند الجاحظ إذ يقول : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتَّابى وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحَذْوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل

---

(١) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٥٠/٢ .
(٢) البيان والتبيين ١١٥/٣ .
(٣) أغانى (طبعة ساسى) ٧٨/٢١ .

ذلك من شعراء المولّدين كنحو منصور النّمرىّ ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتّابى يحتذى حَذْوَ بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هَرْمة[١] » .

وتختلط فى هذا النص أسماء عربية هى العتابى والنمرى وابن هرمة بأسماء فارسية هى بشار ومسلم بن الوليد، مما يجعلنا نتردد فى قبول الرأى القائل بأن البديع ، أو كما اقترحنا له اسم التصنيع نشأ فى الأدب العربى من طريق الفرس الذين يُعْرَفُون بميلهم إلى التعبير باللون[٢]. كل ما يمكن أن يقال أنهم أعانوا فى هذا المذهب ، ولكنهم لم يخترعوه ولم يبتكروه من تلقاء أنفسهم ، إنما هو مذهب عباسى تعاونت فيه طوائف الشعراء من العرب مع طوائف الشعراء من الفرس . على أن العباسيين كانوا يردونه إلى أصول عربية خالصة ، فالجاحظ يقرر فى بيانه أن « البديع أمر خاص بالعرب مقصور عليهم ، ومن أجله فاقت لغتهم كلَّ لغة وأربت على كل لسان[٣] » ويقول ابن المعتز فى مقدمة كتابه البديع : « قد قدّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ليعلمَ أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم (أشبههم) وسلك سبيلهم لم يسْبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعُرف فى زمانهم حتى سُمّى بهذا الاسم فأعربَ عنه ودلَّ عليه . ثم إن حبيب ابن أوس الطائى (أباتمام) من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه وفرّع فيه وأكثر منه . . وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قُرئت من شعر أحدهم قصائدُ من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يُسْتَحْسَنُ ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حُظْوة بين الكلام المرسل ، وقد كان بعض العلماء يشبّه الطائى فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال ، ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولا من كلام لسبق أهل زمانه وغلب

---

(١) البيان والتبيين ١/٥١ .
(٢) النثر الفنى لزكى مبارك ١/٤٤ .
(٣) البيان والتبيين ٤/٥٥ .

على مَدّ ميدانه . وهذا أعدلُ كلام سمعته فى هذا المعنى[١]» . ويمضى ابن المعتز فى كتابه ، فيستشهد لكل لون من ألوان البديع بأمثلة مما جاء عن العرب قبل العصر العباسى وظهوره ومما جاء فى الذكر الحكيم وأحاديث النبى الكريم .

فالبديع لم ينشأ لأول مرة فى العصر العباسى ، بل له مقدمات واضحة فى الأدب العربى ، وقد رأينا أن نسمّى هذا المذهب الذى كمل نضجه عند العباسيين باسم التصنيع ، لأن كلمة البديع معناها الطريف ولا تُعْطى معنى الزخرف والزينة بخلاف كلمة التصنيع التى تدل بمعناها على التأنق والتنميق . وسنرى عندما نتعمق فى بحث هذا المذهب أنه لم يقف عند الألوان التى اصطلح عليها أصحاب البديع ، بل تعداها إلى ألوان أخرى استمدها من الثقافة والفكر العباسى العميق وما وعَى من الفلسفة .

ونعود إلى مناقشة الجاحظ وابن المعتز فى نشأة المذهب ، أما الجاحظ فاتسع به وسلك فيه ابن هَرْمة وبشارا والنمرى والعتّابى ، وقال فى بعض كلامه إن الراعى (معاصر الفرزدق) كثير البديع فى شعره[٢] ، فهو ليس مذهباً عباسيًّا إنما هو مذهب قديم . وأكبر الظن أن مرجع ذلك عنده أنه كان يَعنى بكلمة البديع التشبيهات والاستعارات الطريفة .

وكان ابن المعتز أكثر دقة منه حين لاحظ أن البديع بمعناه الاصطلاحى المحدَث إنما كثر عند بشار ومسلم وأبى نواس ، وهو يعود فيذكر أن أبا تمام أول من جعله وكدَهُ من صناعة الشعر وعمله . فالأولون لهم الكثرة من ألوان هذا المذهب التى كانت تأتى فى ندرة عند القدماء ، وأول من جعله مذهباً أبو تمام . وإذا أخذنا نستعرض آراء النقاد السابقين وجدناهم يلاحظون أن بشاراً زعيم المحدَثين ، يقول صاحب الأغانى عنه : « ومحلُّه فى الشعر وتقدُّمه طبقات المحدثين

---

(١) انظر كتاب البديع (نشر كراتشقوفسكى) ص ١ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٥٦ .

فيه بإجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك [١] » ويسميه الحصرى قائد المحدثين [٢] ، ويقول ابن خلّاد الشاعر فى شطر بيت له : (والآخرون يقودهم بشار [٣]) . وأوضحنا فى غير هذا الموضع قيادة بشار ورياسته للمحدثين ، ورجعناها إلى تجديدات واسعة فى موضوعات الشعر مع موازنة دقيقة بين هذه التجديدات والعناصر التقليدية الموروثة ، وكان أول من ثبّت أسلوب المولدين العباسيين الذى يعتمد على استنباط المعانى الدقيقة ، مستمدًّا من الثقافة الحديثة ، كما يعتمد على تبسيط الأسلوب ومرونته وسهولته ، وخاصة فى شعر اللهو والغزل .

ولعلنا لا نبعد إذ قلنا إن بشاراً لم يفرغ للتصنيع فى فنه والتنميق فى شعره ، وإن كنا نلاحظ عنده خيوطاً منه بحكم ذوقه العباسى الذى كان يُعْنَى بالتأنق . ومعنى هذا أن من يريدون أن يجدوا عنده أمثلة للجناس والطباق وما إليهما من ألوان البديع لا يعدمون ذلك بل يلقونه كثيراً ، غير أنه لم يكن يرى أن يكون الشعر حُلَّى بديعية ، ومن أجل ذلك سلكناه فى جماعة الصانعين الذين لا يبعدون فى التكلف للبديع وزخارفه . وكان كثيراً ما يترك نفسه على سجيّتها ، ولذلك لاحظ القدماء أن له شعراً غثًّا [٤] وأنه يأتى بالهجين المتفاوت [٥] ، وأنه كثير التخليط فى شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً [٦] . وإن كنا لا نغلو غلوهم ، إذ لا شك أنه أكبر شاعر نلقاه فى مفتتح هذا العصر ، وقد جدّد كثيراً فى فنون الشعر و معانيه وأساليبه .

ومَثَلُ أبى نواس مثلُ بشار نجد عنده ضروباً مختلفة من التجديد ، وقد استطاع أن يصل بفن الخمرية إلى الذروة ، ومَزَّنَ كثيراً فى أسلوب المولَّدين الجديد وخاصة فى باب الغزل والخمر والمجون ، وجاء بكثير من المعانى والصور الطريفة ، وعُنى بزخرف البديع فى بعض شعره ، ولكنه لم يتخذه مذهباً يطبقه

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٢٥ .
(٢) زهر الآداب على هامش العقد ٢/٢١ .
(٣) اليتيمة للثعالبى (طبعة بيروت) ٣/٣٨٨ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٧٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦٢ .
(٦) أغانى ٣/١٥٥ .

على أبياته بيتاً بيتاً ، إذ كان كثيراً ما ينظم الشعر عفو الخاطر ولذلك تفاوت شعره قوة وضعفاً ونفاسة وغثاثة : وهو بذلك كله كصاحبه بشار من ذوق الصانعين الذين لا يُجْهدون أنفسهم فى صنع الشعر وتحقيق كل ما يمكن من زخارف البديع .

ونحن بذلك نتفق مع ابن المعتز فى أن أبا نواس و بشارا جميعاً لم يتخذا التصنيع والبديع مذهباً ، ونطلق هذا الحكم معه على شعراء القرن الثانى من أمثال النمرى والعتّابى ، فالبديع أو التصنيع عندهم جميعاً لم يكن مذهباً يعيشون فيه . غير أننا نستثنى مسلم بن الوليد ، مخالفين فى ذلك ابن المعتز حين نظمه مع بشار وأبى نواس ، فهو أول من عاش لهذا المذهب ينميّه ، وتناوله منه أبو تمام فبلغ به الغاية . ولسنا أول من يقول ذلك فقد سبقنا كثيرٌ من النقاد القدماء إليه ، يقول ابن قتيبة : « هو أول من ألطف فى المعانى ورقّق فى القول وعليه يعوّل الطائى فى ذلك [١] » ويقول أبو الفرج الأصبهانى : « وهو فيما زعموا أولُ من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقّب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، أشهرهم فيه أبو تمام الطائى » وينقل عن القاسم بن مهرويه قوله : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذى سماه الناس البديع [٢] ، ويقول ابن رشيق : « هو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة (البديع) وأكثر منها ، ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل صريع الغوانى إلا النبذ اليسيرة [٣] » . ويردّد صاحب معاهد التنصيص ما قاله أبو الفرج فيقول : « هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقّب هذا الجنس بالبديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، أشهرهم أبو تمام الطائى [٤] » .

فمسلم هو صاحب هذا المذهب الجديد من التصنيع وهو الذى اقترح له اسمه البديع . على أن اعتناقه له لا يعنى أنه قضى على المذهب القديم مذهب

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٢٨ .
(٢) انظر ترجمة مسلم بن الوليد فى الأغانى الملحقة بديوانه (نشر سامى الدهان — طبع دار المعارف) ص ٣٦٤ وما بعدها .
(٣) العمدة ١/ ٨٥ .
(٤) معاهد التنصيص ١/ ٢٠ .

الصنعة ، فقد مضى الشعراء فى القرن الثالث يقفون فى صفين متقابلين ، منهم من يفهم الشعر على أنه تصنيع وزخرف وتنميق مثل أبى تمام وابن المعتز ، ومنهم من لا يُبْعد فى فهمه كل هذا البعد، مثل البحترى وابن الرومى. وإن كنا نلاحظ عندهما وعند أمثالهما من أصحاب مذهب الصنعة فى القرن الثالث أنهم كانوا يستخدمون زخارف التصنيع فى صورة أقوى وأوضح منها عند أسلافهم فى القرن الثانى ، ومن ثَمَّ أخذ مذهبهم فى التعقد . ولعل فى ذلك ما يجعلنا نؤمن بأن إيجاد الحواجز والفوارق المطلقة بين المذاهب الفنية أمر عسير ، إذ ما تزال تتداخل وتتشابك على هيآت مختلفة ، وهذا شىء طبيعى فإن الشعراء حينئذ كانوا يلتقون كثيراً فى مجالس الخلفاء والوزراء والنوادى الأدبية العامة ، وكانوا دائماً يعلقون على ما يسمعون من شعر باستحساناتهم ، وبذلك تبادلوا التأثر بعضهم ببعض ، ونسوق لذلك مثلا : نادى القراطيسى الذى مرت الإشارة إليه « وكان مألفاً للشعراء ، فكان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله ، ويجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان[1] » ولا تخلو ترجمة شاعر عباسى فى الأغانى من وصف هذه الاجتماعات وما كان يحدث فيها بين الشعراء من مطارحات ونوادر أدبية ، وكل منهم يسأل صاحبه عن أجود شعره .

وعلى شاكلة اجتماع مسلم بأبى نواس وأبى العتاهية ظل أصحاب التصنيع والصنعة يجتمعون فى بغداد ، وهيأ هذا الاجتماع لشىء من التداخل بين المذهبين العامين فى حرفة الشعر حينئذ ، وأصبحنا نجد عند الصانعين محسنات المصنِّعين وزخارفهم ، ولكنهم لا يستخدمونها مذهباً ، بل تسقط فى نماذجهم وقصائدهم من حين إلى حين . وهذا هو فرق ما بين العملين والمذهبين ، يوجد اختلاط ، ولكن لا يوجد اتحاد ، ويوجد عند الصانعين حليات التصنيع من حين إلى حين ولكن لا يوجد استمرار التطبيق .

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٨ .

٩

التصنيع فى شعر مسلم ونماذجه

وُلد مسلم بن الوليد فى الكرفة حوالى سنة ١٤٠ للهجرة ، وكان أبوه من موالى الأنصار ، إذ كان مولى لأسعد بن زرارة الخزرجى[١] ، وأغلب الظن أنه كان فارسيًّا ، ويقال إنه كان حائكاً . وعُنِى على ما يظهر بتربية أبنائه وتوجيههم إلى حلقات الدرس والأدب فى بلدتهم ، ونبغ له ابنان هما سليمان ومسلم ، ويظهر أن سليمان كان أكبرهما وكان مكفوفًا ، ويقال إنه كان يلزم بشار بن برد ، ولذلك اتُّهم بالزندقة[٢] . ونراه هو وأخاه فى بغداد لعهد الرشيد ، يطرقان أبواب البرامكة وكبار رجال الدولة وقادتها العظام من مثل يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد[٣] ، فكانوا يبرُّونهما ويجزلون لهما فى العطاء . ولم يُعْرَفْ مسلم بزندقة كما عُرف أخوه ، وإنما عُرف بإقباله على اللهو والطرب ، فكان يجتمع بأبى نواس وطبقته مثل أبى الشَّيص[٤] ، ويقبل معهم على الخمر والمجون ، ويقال إنه كان إذا كَسَب مالا جمع أصحابه فى بيته يأكل معهم ويشرب ، حتى إذا لم يبق من كسْبه سرى قوت شهرٍ ظهر فى الناس . واختياره منزله للهوه وطربه يدل على أنه كان فيه شىء من التوقر ، وهو على كل حال لم يهبط إلى عبث أبى نواس والحسين بن الضحاك الخليع وأضرابهما ، فقد كان يعرف لنفسه حقها من الكرامة ، وكان يحتفظ بغير قليل من الوقار . وكان فيه فضل من حياء . ولعل ذلك ما صرفه أول الأمر عن الخلفاء ، فكان يمدح مَنْ دونهم ولا يطمع فى مديحهم . وما زال هذا شأنه حتى اشتهر فى الأوساط الأدبية ومدحَ منصور بن يزيد الحميرى ، فوصل بينه وبين هرون الرشيد ، وأصبح من شعرائه ، ويقال إنه

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى الملحقة بديوانه (نشر سامى الدهان) ص ٣٦٤ وما بعدها وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣/٩٦ . (٢) الحيوان للجاحظ ٤/١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبعة مصر) ١١/٢٥٥ . (٣) الديوان ص ٣٦٥ . (٤) طبقات الشعراء ص ٧٢ ، ٢٠٧ .

لما أنشده لاميته المشهورة فيه وبلغ قوله :

هل العيشُ إلا أن تروحَ مع الصِّبَا وتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُّجْلِ

قال له : أنت صريع الغواني ، فسمّي بذلك حتى صار لا يُعْرَف إلا به[١].

وتدلنا أخباره على أن الرشيد كان يعجب به ، وفى رأينا أن مصدر هذا الإعجاب لم يكن مديحه له فحسب ، فقد وجده يشيد بقائده يزيد بن مَزْيد الشيباني حين قضى على ثورة الخوارج فى عهده وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائة ، وبلغ من هذه الإشادة كل مبلغ ، حتى جعله عز الخلافة :

إذا الخلافة عُدَّتْ كنت أنت لها عِــزًّا وكان بنو العباس حُكَّاما[٢]

بل جعله سداد الملك العباسي وصمام أمانه فى حروب الخوارج وعلى حافات الثغور ، يقول[٣] :

لولا يزيد لأضحى الملك مطَّرَحًا أو مائل السَّمْك أو مُسْترخيَ الطِّوَلِ[٤]

نابُ الإمام الذى يفترُّ عنـــه إذا ما افترَّت الحرب عن أنيابها العُصُلِ[٥]

وصادف ذلك هوى فى نفس الرشيد ، لأنه كان قد أخذ يفكر — على ما يظهر — فى إعلاء كفة العرب فى شئون الحكم ومقاليده ، وكان يرى الشعراء مزدحمين على أبواب يحيى البرمكى وولديه الفضل وجعفر وغيرهم من الفرس ، فكان ذلك يقضّ مضجعه ، ويتساءل بينه وبين نفسه أين العرب وكيف أرفع منهم أمام هؤلاء الذين استبدُّوا بى وملأ لهم الشعراءُ طرقات بغداد ثناء . فلما نظم مسلم مدائحه فى يزيد تنفّسَ عن نفسه ووجدها رَوْحاً على قلبه . ويروى الرواة أنه أرسل يوماً إلى يزيد ، فأتاه لابساً سلاحه مستعدًّا لأمر إن أراده ، فلما رآه ضحك وقال له : يا يزيد أخبرنى من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى دِرْعٍ مضاعفة لا يأمنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَلِ

لله من هاشمٍ فى أرضـــه جبلٌ وأنت وابنك رُكْنا ذلك الجَبَلِ

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٣٥ .

(٢) الديوان ص ٦٧ .

(٣) الديوان ص ٧ .

(٤) مطرحا : مخذولا . وقد شبه فى الشطر الثانى الملك بخيمة لولا يزيد لمال عمودها واسترخت حبالها .

(٥) يفترّ عنه هنا : يكشر ، والعصل : المعوجة ، وهى أشد بأساً من المستقيمة .

فقال له : لا أعرفه ، فعجب الرشيد ، وقال له : سوءة لك من سيد قوم يُمْدَحُ بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين ، فرَواه ، ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد . وانصرف يزيد فدعا به ووصَله[1] ، وتوالت عليه عطاياه ، ووالى مسلم مدائحَه الرائعة فيه . وجذبه غير واحد من رجالات العرب فكان يقلدهم مدائحه ، مثل داود بن يزيد المهلبي وزيد بن مسلم الحنفي والحسن ابن عمران الطائي ومنصور بن يزيد الحميري وابنه محمد. وظل وفيًّا للبرامكة ، ولكن يزيد بن مَزْيد غلب عليهم كما غلب معه هؤلاء العرب الخلص . ونراه يمدح الأمين ، حتى إذا تحوَّلت أزمَّة الخلافة إلى أخيه المأمون لزم الفضل بن سهل وزيره ، وكانت قد تقدمت به السِّنُّ ، فعطف عليه الفضل وولاه بريد جُرْجان وقيل مظالمها ، ولم يلبث هناك أن لبَّى نداء ربه سنة ثمان ومائتين .

وأكثرُ شعر مسلم في مديح من سميناهم وله غزليات وخمريات قليلة ، وهاجى ابن قُنْبر الشاعر ، ولكن لا على طريقة الهجاء عند حماد عجرد وبشار ، ولكن على طريقة الشعراء الأمويين ، وما زال به حتى أفحمه وكفَّ عن مناقضته[2] . ويقال إنه هجا يزيد بن مزيد ، وربما نَدَّ ذلك منه حين تأخر عن عطائه ، ووصل ذلك إلى مسامع الرشيد فأحضره وهدده وقال له : « لئن بلغني أنك هجوته لأنزعنَّ لسانك من فكيك » فانتهى ولم يَعُدْ ، ونعم بعطاياه وعطايا الخليفة معاً ، حتى إذا توفِّي رثاه رثاء حارٍّا .

ومسلم في شعره يعتمد اعتماداً شديداً على الإطار التقليدي وما يرتبط به من جزالة الأسلوب ومتانته ورصانته ونصاعته وقوته ، حتى في غزله وخمرياته ، فإنه لا يهبط أبداً على نحو ما يهبط أبو نواس وأبو العتاهية إلى الأساليب اليومية ، وحقًّا مرَّ بنا في الفصل السابق أن له قصيدتين من وزن مولد ، ولعله جارى فيهما أصحاب مذهب الصنعة وتجديداتهم في البحور الشعرية ، وهما على كل حال شذوذ في عمله ، أما بعدهما فشعره يغلب أن يكون من الأوزان الطويلة حتى تتلاءم

---

(١) انظر ترجمته في الأغاني الملحقة بالديوان ص ٣٦٧ .

(٢) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٣/٨-١١ وراجع ترجمته فيه الملحقة بالديوان .

مع ما يريد من جَرْس قوى ، ومن ضخامة البناء فى اللفظ والتعبير . وهو من هذه الناحية يُعَدُّ فى طليعة من دفعوا الشعراء العباسيين إلى التمسك بالأسلوب الجزل المصقول ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه فعلا أول من دفع الشعراء فى هذا الاتجاه ، فقد كان الشعر العربى عند أبى نواس وأبى العتاهية على وشك أن يزايل هذا الأسلوب إلى الأسلوب الشعبى اليومى ، فأمسك به مسلم دون هذه الغاية وردَّه فى قوة إلى جزالته القديمة وجعلها مقوِّماً أساسيًّا من مقوماته ، بل جعلها المقوم الأساسى الأول بين هذه المقومات . وعَمَّ هذا الذوق لا عند خلفائه من أصحاب مذهب التصنيع مثل أبى تمام بل أيضاً عند أصحاب مذهب الصنعة وكبارهم خاصة ، مثل البحترى . ولا تظن أن هذا الأسلوب الجزل القوى لم يكن يكلِّف مسلما مشقة ، بل لقد كان يكلفه عناء أى عناء فى اصطفاء اللفظ والملاءمة بين اللفظة واللفظة فى الجرس ، حتى يتم له ما يريد من ضخامة البناء وروعته . وهو بناء يقام على أعمدة ، هى الأبيات ، وكل بيت كسابقه فى الضبط والإحكام ، وكل قصيدة ، بل كل مقطوعة كمثيلتها فى هذا النمط الذى لا يتفاوت نسيجه ، ومن أجل ذلك يختلف اختلافاً بيناً من أبى نواس وأبى العتاهية ، فشعرهما فيه القوى والضعيف ، وفيه المتين والمهلهل ، لسبب بسيط وهو أنهما من ذوق أصحاب الصنعة ، لا يُبْعدان حين النظم فى التكلف ، بل كثيراً ما يقولان الشعر بديهة وارتجالا فى غير تروٍّ ، أما مسلم فصاحب رَوِيَّة ، لا يرتجل ولا يقول الشعر عفواً ، فالشعر عنده صناعة مجهدة ، لا بد فيها من التريث والتمهل ، ولا بد فيها من الصقل والتجويد ، ولعل ذلك ما جعل ديوانه صغيراً بالقياس إلى دواوين معاصريه من أمثال بشار وأبى نواس .

وهذا البناء الضخم عنده لا تكفى ضخامته وحدها فى رأيه ، فلا بد أن يضاف إليه الزخرف الجديد الذى كان يأتى على قلة فى الشعر القديم ، وأكثر منه بشار وخلفاؤه ، ولكنهم لم يتخذوه مذهباً ، أما مسلم فقد رأى أن يطبِّقه على شعره ، واقرأْ له القصيدة الأولى فى ديوانه وهى فى مديح يزيد بن مزيد ، فستراه يستهل غزلها على هذا النحو :

أجْرَرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِلٍ   وشمَّرتْ هِمَمُ العُذَّالِ فى العَذَلِ [١]
هاجَ البكاءَ على العينِ الطَّموحِ هوًى   مفرَّقٌ بين توديعٍ ومُحْتَمَلِ [٢]
كيف السلوُّ لقلبٍ راح مُخْتَبَلاً   يَهْذِى بصاحبِ قلبٍ غيرِ مختبَلِ

والجهد واضح فى الأبيات سواء من حيث اختيار الألفاظ أومن حيث إضافة زخارف الجناس والطباق فهو يجانس بين العُذَّال والعذل . وهو يطابق بين المختَبل وغير المختبل . وفى البيت الثانى طباق دقيق بين الهوى المقسَّم بين التوديع والاحتمال أو الارتحال ، فإن التوديع يتضمن الإقامة القليلة ، وهى عكس الارتحال . ونمضى معه إلى المديح فنراه كله على هذا الطراز :

يغْشَى الوَغَى وشهابُ الموت فى يدهِ   يرمى الفوارسَ والأبطال بالشُّعَلِ [٣]
يفترُّ عند افترار الحرب مبتسما   إذا تغيَّر وجهُ الفارس البطلِ
موفٍ على مُهَجٍ ، فى يوم ذى رَهَجٍ   كأنه أجلٌ يسعى إلى أمَلِ [٤]
ينال بالرفق ما يَعْيَا الرجال به   كالموت مستعجلا يأتى على مَهَلِ
لا يرحلُ الناس إلا نحو حُجْرَتِه   كالبيت يُفْضِى إليه مُلْتَقَى السُّبُلِ
يَقْرِى المنيةَ أرواحَ الكُماة كما   يَقْرِى الضيوفَ شحومَ الكومِ والبُزُلِ [٥]
يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به   ويجعل الهامَ تيجان القَنا الذُّبُلِ [٦]
قد عوَّد الطيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها   فهنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كل مُرْتَحَلِ

وأنت تراه يعتمد على النحت وقوة البناء ، كما يعتمد على الزخرف والتصنيع، حتى يصبغ هذا الديباج أو النسيج المتين بالألوان والأطياف . وانظرْ فى البيت الأول فإنك تراه يستعير الشهاب للسيف ، ويجعله شهاب الموت ، وهو شهاب تسقط منه على فوارس الأعداء الشعل فتحرقهم حرقاً لا يبقى ولا يذر . وحاولَ

---

(١) أجررت حبل خليع : من قول العرب : أجررت البعير حبله إذا تركته يصنع ما يشاء .
(٢) محتمل : ارتحال ، من احتمل القوم أى ارتحلوا .
(٣) الوغى : الحرب .
(٤) الرهج : غبار الحرب .
(٥) يقرى : يطعم ، الكوم من الإبل : ضخمة الأسنمة ، وأحدها كوماء ، والبزل : جمع بازل وهو المسن الذى أكل تسعة أعوام .
(٦) الهام : الرءوس ، الذبل : الرقيقة القاتلة ، والكماة : جمع كمى وهو الشجاع .

obeikandi.com

فى البيت الثانى أن يأتى بلون آخر هو لون الجناس ، فجانس بين يفترّ وافترار ، وأدخل فى ذلك ضرباً من المشاكلة، فيزيد يفتر مبتسماً وتفتر الحرب عن أنيابها القاتلة الغلاظ . ولم يكتف بذلك فى البيت ، فقد أضاف فيه لوناً جديداً هو لون الطباق ، فطابق بين تغير الوجه وعبوسه وابتسام يزيد ، وكل ذلك ليحقق لنموذجه ما يستطيع من زخارف الفن الجديدة . أما البيت الثالث فكان يعجب به إعجاباً شديداً ، لتألق لون الجناس فيه بين مُهَجٍ ورَهَجٍ ، ثم بين أجل وأمل ، ويُرْوَى أنه اجتمع بأبى العتاهية فقال له : « والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمـــدُ والنعمة لكْ والملكُ لا شريك لكْ
لَبَّيْكْ إن الملك لكْ

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكنى أقول :

موفٍ على مُهَجٍ ، فى يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجل يسعى إلى أملٍ (١) »

فهو يحس إحساساً دقيقاً بأنه يتناول حرفته بطريقة أخرى ليست هى طريقة الصانعين من أمثال أبى العتاهية ، إنما هى طريقة المصنِّعين التى ابتدأها والتى تجعل الشعر نحتاً وصقلا وزخرفة وتنميقاً . وننتقل مع مسلم إلى بيته الرابع فنرى فيه طباقاً واضحاً بين الاستعجال والمَهل وطباقاً دقيقاً بين النَّيْل أو الأخذ بالرفق والأخذ مع الإعياء . ويصوغ فى البيت الخامس صياغة جديدة بيت زهير فى مديح هَرِم بن سنان (٢) :

قد جعـــل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابـــه طُـــرُقا

ويستمر فيتحدث عن قِرَى يزيد وضيافته وكرمه . ويجنح إلى المشاكلة ، فيزيد له ضربان من القِرَى : ضرب فى السلم كقرى الأجواد ، وضرب آخر فى الحرب ، إذ يقرى الموت أرواح الشجعان . ونراه فى البيت السابع يُطرف قارئه بصورة بارعة ؛ إذ جعل يزيد يكسو السيوف بدماء أعدائه ويتوِّج القنا والرماح برءوسهم . وينتهى مسلم أخيراً إلى فكرة عربية

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٢٧.

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٤٩.

قديمة طالما رددها الشعراء من عهد بشر بن أبى خازم والنابغة ، وهى فكرة الطير تتبع الممدوح فى حِلِّه وترحاله لما تصيبه من جثث أعدائه، ويحوِّر مسلم الفكرة هذا التحوير الطريف ، إذ يجعل الطير تتعود من صاحبه عادة تثق به فيها ، وهى لذلك ما تزال تتبعه وتلاحقه من موضع إلى موضع .

ولعلك لاحظت فى أثناء قراءة أبياته السالفة دقة تفكيره ، وهى دقة كانت تفتح له أبواباً من المعانى الخفية ، التى تروع السامع بغرابتها وطرافتها من مثل قوله فى الغزل(١) :

إن كنتِ تسقين غَيْرَ الراح فاسقيني ... كأسًا ألذّ بها من فيكِ تَشْفيني

عيناكِ راحى، وريحانى حديثُك لى ... ولون خدّيك لون الورد يكفيني

وقولـه(٢) :

يا واشيًا حَسُنَتْ فينا إساءتُهُ ... نجّى حذارُك إنسانى من الغَرَق(٣)

وقوله فى الخمر (٤) :

شَقَقْناها فى الدّنّ عينًا فأسْبَلَتْ ... كألسنة الحيّاتِ خافتْ من القَتْل(٥)

وقوله فى الساقى (٦) :

يسقيك بالألحاظ كأسَ صَبابةٍ ... ويُديرها من كَفّه جِرْيالا(٧)

وقوله فى المديح (٨) :

فإن أغْشَ قوما بعدهم أو أزُرْهُمُ ... فكالوحش يدنيها من الأنَس المَحْلُ(٩)

ويستمر مسلم فى الديوان كله على هذا النمط ، فزخارف الفكر واللفظ ما تزال تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض لتكوّن هذا الحلى البديع ، وهو حلى يتداخل فى بناء متماسك ، يرفعه مسلم كما يرفع المثالون تماثيلهم ، فكل جانب يفتقر إلى جهود واسعة وإلى مثابرة وصبر . وحقًّا هو صاحب هذا المذهب من

---

(١) الديوان ص ٣٤٣ .
(٢) الديوان ص ٣٢٨ .
(٣) إنسان العين : سوادها .
(٤) طبقات الشعراء ص ٢٣٩ وانظر الديوان ص ٣٨ .
(٥) أسبلت : سالت .
(٦) الديوان ص ٢٠٤ .
(٧) الجريال : الخمر .
(٨) الديوان ص ٣٣٣ .
(٩) المحل : الجدب .

obeikandi.com

التصنيع ، فقد عاش ينمّيه ، وحقّق لنفسه منه نماذج بديعة ، جعلت الشعراء من بعده تَهْوِى أفئدتهم إلى محاكاته وتقليده ، حتى أصحاب مذهب الصنعة أخذوا من بعض الوجوه يحاكونه ويقلدونه ، لأنه البِدْعُ الجديد الذى كان يروع أوساط الأدباء والمثقفين . وليس معنى ذلك أن مذهب الصنعة انتهى وانقضى ، فقد ظل المذهبان يتقابلان طوال القرن الثالث ، ومَثَّلَ البحترى وابن الرومى مذهب الصنعة ، غير أنهما عَقَّدا فيه وفى أدواته بما استمدا من تلك الزخارف ووشيها الرائع . وأما مذهب التصنيع فشَلّه أبو تمام وابن المعتز ، وقد عقّدا فيه وفى زخارفه تعقيداً شديداً ، يستوفى كل ما كان يحلم به مسلم من تأنق وتنميق .